يوسف المحيميد

لغط موتى

قصص

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
2000

رســـــــائل لن تـصل

إلـــى

ـبد الله

الســـــــفر

لغط موتى

أصدقاء كثر يظنون أنني لا أملك أن أكتب نصّاً طويلاً، رواية مثلاً، لأنني لست قادراً على أن أنكبَّ لليال، ولشهور، وربما لسنوات، في مكتبتي الصغيرة، مؤجِجاً شمعةً عُرفُها ينثني كلما تنفَّستُ مليَّاً، ومن أعلاها يتمشى شمعٌ يحفر بدبيبه، كبشرٍ يتناكبون، ليس عليَّ سوى أن أخطَّ بسواد قلمي على رؤوسهم ملامح وأحلاماً وذكريات، وهزائم وأسراراً ومكائد.. ثم أنضد لهم طرقات وشوارع، سراديب ومكاتب، وسجوناً وقصوراً، ردهات وبيوت صفيح، لأجعلهم يمشون بمشيئتهم إلى مايقودهم من وقائع وأحداث.. إلخ..

آخرون يظنون أن انشغالي كصحفي، يسلب وقتي، رغم أن أكثرهم يعرفون أن الصحيفة التي تشعل هزائمي، كل هنيهة، تعجُّ بوجوه منسوخة، منشبٌ عليها أقنعة مكررة، تهبط من ملامحهم الكلمات ذاتها، والآراء الجاهزة التي ينسلونها من أدراجهم، ثم يسحلون أسمائهم فوقها؛

ولو طرقتهم دون قصدٍ فكرةٌ شاردة، وغائرة، نكص أحدهم إلى دورة المياه، ثم قلَّب قناعه تحت خيط الماء، وارتداه ثانية.

لا أحد يدرك كم صعب أن أكشف أسرار وكنوز الذين يمرّون خفافاً في الذاكرة، ليس لأنني مثالي جداً، أخبئ ما أعرفه، لاأسرُّ به لأحد، حتى تغصَّ ذاكرتي وتفيض، فيتسرّب لغطُها كخيط سرّي داخل صدري، وأنا أواسي كفني في رقدتي الهانئة. ولست أرى الأشياء والأشخاص كما هي، فأنقل تجاربهم، ووقائعهم كما أعرفها تماماً، فأكون ناقلاً ساذجاً للواقع- ما الذي أتى بكلمة الواقع هنا – لايهم. ما أردته أنني أصنع شخوصي، وألوي أعناق وقائعهم، فأسوقهم أمامي كالشياه الضالة، أجعلها في سطوة الغبار تدلق سرائرها الكامنة، كما نفعل من اقتحام للمنازل الضخمة، إذا عجَّ مبيد الحشرات الأبيض، في أفنيتها، نعدّ الأعمدة فيها، ونتلمّس أثاث الغرف، قبل أن نسقط غافلين في أثاث النساء الوافرات، فنرتطم باكتناز يرعش كذبيح سقط توًّا.

أحياناً تنفضني حمّى مديدة، تكثُ فوق جسدي عرقِاً أو مطراً، أو جحيماً، حال تذكّري حالات شخوص أفكر أن يكونوا أبطالاً لرواية مثلاً. أشعر أن أحدهم، ولنفترض أن اسمه مسعود، سيوقفني في درب مسدود الآخر، ويستجوبني بقسوةٍ أولاً، ثم سيبكي كسيراً، كيف انفلت

بصري من أسره، راصداً شهادة تقدير بختم رسمي للوزارة، تزيَّن أعلى سريره، ووساماً يتدلّى فوق الزهور المجفّفة على الكوميدينة لصق السرير؛ ثم سيجذبني من يدي، وهو يشير تجاه بيت ضخم، متفلّق الطلاء، بابه مردوم بسلاسل تتهدّل لتمس الرصيف، وأشجاره الضخمة فائضة وذاوية، قائلاً لي: لماذا لم تذكر أنني عملت هنا سائقاً، وأنني أنتظر صاحب المنزل في السيارة مع الكلاب الضالة، حتى يعرك نعاسي بياضُ الفجر؛ وقهقهاتُه مع أصدقائه المخمورين، وهم ينزلونني من السيارة، آمرين أن أخلع، وأقعي لأبول، مثل كلب، ثم ينهالون بضحكاتهم وركلاتهم، وطَفَر الدمع من عيونهم الذاوية.

ماذا سأقول لمسعودٍ لحظتها، هل أقول أن كثيرين شاهدوك وأنت تقعي وتبول، بالأقل الكلاب الشاردة التي لاذت في طرقات جانبية، وهي تشعر أنها أقوى منك؛ بل لعل أحدها، أكثر حظوة منك، لحظة اتخذته "موضي" ابنتك خليلاً، دلكت له وبره الناعم بالماء والصابون، وقد افترشت له سماطاً مزخرف الزوايا بزهور وردية، في مساحة جانبية من سطح منزلك الحجري، قرب حجرتها، وقد اعتزلت الأهل والأقارب والناس، وقادته خاضعاً ودوداً إلى حجرتها ببابها الحديدي؛ لم يكن صرير الباب ذاك الذي يعلو في الظهيرات، بل كان هسيسه ممتنّاً،

ودائخاً، بعينيه اللامعتين، وهو يحــس بعضــلاته كلهــا تتخلص من رخاوتها، وتفزّ، فينهض عَجلاً متشمماً، ومن شدقيه يتقاطر جوعه وضلاله، ثم يعلو قليلاً، غارزاً شيئه، هازّاً كبندول ساعة في حوش بيتك الحجري، تاركاً عقداً ينتهي بحلقة نحاسية يجلجل في ظهيــرة قانطــة، كمــا الأجراس الضاجّة، في عنق الحمار الساحب عربة الجاز، في شارعك الترابي.

ربما تفجؤني أيضاً "موضي" بقامتها الممشوقة كنخلة ضاربة في واحة ابتلعها الرمل، وهي تحشرني في لــوذةٍ طارفة في حارتي التي أسكنها، بوجهها الملائكي الــذي غطّت صفرته كل شيء، ســتدفعني بجبروتهــا لصــق الجدار، وسأحس بأعشاب الجــدار الطينــي، الصــفراء، الناتئة قليلاً، تخمش ظهري عاتبة، ثم تسألني كوني أحكي عن الكلب الذي ضلَّ الطرقات كلها، والشموس الحارقة، ليسكن بدعةٍ في الظل، مغمضاً تحت المياه الباردة، التــي تسللت مخلوطة برغوة الصابون، من مثعبٍ فاض بعنقه، إلى الشارع الترابي، وتراقص تحت خيط المــاء الهــابط أولادٌ أشقياء وشاردين.

لماذا لم أذكر، بالأقل، خيباتها وهزائمها الكبيرة، كان يلفظها الموظف الحكومي بلحيته المشذّبة بعناية، في بيت الأهل الحجري، مردّداً وهو يدير مسبحته كمروحة، فــي مدخل البيت:

بنتكم ورجّعناها لكم. ورعبي لحظتها، إذ لم يقل لـــي أبداً، ماذا كان ينوي أن يفعل طول الطريق، مسافة ثمانين كيلاً، من القرية التي عشت فيها معه؛ فقط عرفت أننـــي في زيارة الأهل. تماماً كما لم أعرف أنني أُزفُ تلك الليلة البعيدة، فقط ثلاثة عشر حلماً حلمتها، آن حملوني بحجــة أننا في نزهة بريّة، حيث قرية جنــوب المدينـــة، هنـــاك أدخلوني قصراً على حوافّ جدرانه العالية أضاءت لمبات حمراء؛ قالوا سنحضر حفل زفاف، وفي غرفة ضـــوؤها خافتٌ جلستُ، بصحبة امرأة بدينة، خضَّـــبَت أصـــابعي، وأرخت شعري الوافر، وحكت كلاماً غامضاً لم أدركـــه، حتى دخل بلحيته المصبوغة والمشذّبة بعناية، هامزاً كفّها بورقة نقدية، ثم غبتُ عن كل شيء، حتى الصباح الـــذي تقافزت على درجات سلّمه أسطوانة غاز أيقظتني. هـــل تعرف معنى أن تستيقظ عروسٌ على رنـــين اســـطوانة، ولغط خارج غرفتها.

ستشدني ربما "موضي" من ذراعي، وتهمهم بصخب ناقة شرسة، عن قذارتي، وحجبي لكنوز غيّرت حياتهـــا، بينما أحكي عن أسرار لاتهمّ كثيراً، كما عن إبنـــه الـــذي يبقى معي، ومع زوجتيه الأخريين، ضحى يغيـــب أبـــوه الموظّف، في دائرة الإمارة في المدينة، ليهتم الإبن بالنخل والسقاية، ثم يتسلل إليَّ؛ وكما يدلق فنجان القهوة المـــرّة- الذي أصنعه- في جوفه، يدلق لي مرارة أيامه، وعزلـــه

عن تتمة دراسته، لينتهي بأن يحفر بركبتيه أرض الغرفة القاسية، وينفض نشيجُهُ أثوابَ أبيه المعلّقة في الخزانة الخشبية كرجال مشنوقين؛ لماذا تذكر ذلك فقط، دون أن تنقل بصرك الجاحد إلى غرفته الخشبية في السطح، إذ يعرِّفني على صور بالأسود والأبيض تغطي الجدران، لفنانين وأدباء وثوّار وفلاسفة؛ لِمَ لا تسمعه ساعة يحدّد ملامح أبي الغائبة عنّي، حياته وعمله، الشهادة المزينّة بإطار داخل غرفة نومه، الوسام الذي علّقه على زهور الآنية، فجفَّت أو اختنقت، فأسموها زهوراً مجفّفة، أو مختنقة؛ أيضاً أبوه الذي يعمل خفيةً في خبايا دخان البخور الأبيض. كيف تشوّهه، وكل ماتذكره عنه، بعض هراء مؤلف فاشل، بأن تصفه بذي الالتفاتة المرتبكة، والعينين الزائغتين، والغموض الذي تفرضه الحمائم إذ تتبعه بأجنحة صفّاقة، وهي تطير من جذع لآخر، وكأنما تتبئ بقدومه؛ هل يكفي تسميته بالرجل المتبوع بالحمائم أنّى اتّجه، أيكفي أن تختتم سيرته في روايتك، بأنه فتح الباب، في مساء نفضتْ أشجارُهُ أقراطَها، لطارق مباغت، ثم اختفى هو، ومن دقَّ الباب، وكأنما ابتلعه رمل الدهناء، مثلاً.

سأقول لحظتها لموضي، وأنا أخلّص ذراعي من قبضتها، بأنني فعلاً لا أعرف أين اختفى، من التقطه، هل هرب، ضلَّ، تاه، سجن، ارتفع.. لست أعرف كلّ شيء.

ستقذفني بعين ناشزة، وحارقة؛ وحاجبيها يتجاذبان بشدّة، إذ تلومني، وهي تهمس، بأنني عرفت أين اختفى الكلب، وهو مجرد كلب، كيف أوثق عليه داخل كيس خيش، طُوح به في حوض سيّارة نقل صغيرة، شقَّت به الطرقات النائمة، وعلى أميال من طريق برِّي مهجور، حُذف بالكيس على صخرة، وهو ينبح، فأمطرَتْه حجارةٌ جعلت نباحه يخفت، حتى صارٍ يهسُّ مع ركل ضعيف لقائمتيه، حتى خمد الكيس تماماً.

ستشدّني من ياقتي، ثانيةً، موضي، وهي تجأر، كيف عرفتَ أين غبتُ، بعدما سأل الطبيب الشامي بنظارتيه الدائريتين المعقودتين بسلسلة فضيّة، جدّي وأبي، وقد فحصني، إن كان ثمّة حيوانات في البيت، فهزَّ أبي رأسه نفياً، إلى أن صدحت لهما أختي الصغرى، أن كلباً يتجوّل في الأعلى، فقلب لحظتذاك جدّي فنجانه فوق جمرات موقد لم يترمّد بعد، حتى علتْ غيمةُ دخان تخلّلت لحيته الهائجة؛ جدّي الذي لا يفرِّط بحبّة قهوة، تنازل لارتباكه آنذاك عن فنجان قهوة مملوء. كيف عرفتَ إذ اختفيت من الحارة كلّها، لشهور ستة، أنني أودعت، كما يليق بكِيس عظام متكلّسة، في مصحّة عزل خارج المدينة المقطبة.

أيضاً، ألا تشير، ولو لمحاً، إلى جدّي الذي كشط عظامي المنهالة عن اسمنت السطح بغلاظة، وأمر أبي أن يرميني هناك، معزولةً، إلاّ من حزني.

كثير من أصدقائي، وأنت أحدهم، يقّعدون أسـئلتهم قبل أن تشتبك معي أيديها الطويلة، حتـى المسـاء ذاك، الذي مدّت فيه أعناقها، بأنني أنقّل أدواتي وبصري أينمـا حللت، وأجلو مفرداتي مثل ودع، وأمتطي الذاكرة فاضَّـاً بها طفولتي، وطفولة العالم والأشياء؛ كيف، ولم لا تكتب رواية ما، دون أن يشاركني أيٌّ مـن هـؤلاء مسـؤولية الوقفة أمام شخوص شائكين كهؤلاء، مسعود، موضـي، الرجل باللحية المشذّبة بعناية، الشاب المطوَّق بالحمـائم، والجدّ. بل أن ارتباكي ووجلي حيال الأحياء، لا يعـادل شيئاً أمام رعبي للأموات كالجدّ، مثلاً؛ وليست الإرتباكـة هنا، بفعل شعوري فقط بحضور الأرواح، كحضورها في القط الذي يداهم غرفتي، برهة أكتب، ويسكب الشاي على السجّاد، أو أن يتدلّى فجأة من زاوية السقف، ماثلاً أمـام عينيّ، العنكبوتُ المتشبث بخيط دقيق واهٍ لا أراه، وكأنما يلفتني بأن أقف عن كتابة سيرته. أوحضورها بطرقعات الوزغ النافذ من فتحة المكيّف، والشاخص أمامي بعينيـه الطافحتين، حتى أتعثّر في المفردة تلو المفردة، وأغـصّ في رعبي ورعشتي. أو غفلتي عن الصرصـار السـائر فوق إطار اللوحة المثبتة على الجدار، حتى يفجعني بـأن ينقضَّ بجناحيه، حاطّاً على ورق الكتابة؛ لم يكن خـوفي من أن تحضر أرواح الموتى في هكذا حشرات طـائرة،

بل تصفّر الريحِ مثلاً، وبغتةً، من شقوق النافذة، فتجعلني أحياناً، بل كثيراً، أخفضِ رأسي كمن يتّقي رصاصة طائشة؛ أو أن يخرَّ فجأةً عرف الشمعة، وقد انتهت، فأغرس رأسي بين كتفيّ، يائساً من جدوى إقفال أذنيَّ عن وشوشاتهم، وحفيف أثوابهم، حين يتناولون الكتب من الأرفف المعلّقة على الجدران، نافضين غبارها، مقلّبين صفحاتها، وهم يبلّلون إبهاماتهم، لتنثني معها الصفحات العصيّة.

هكذا أحسُّ كثيراً، أن أحكي عن الجَدُّ، مثلاً، الذي يزجر عين الشمعة البصيرة، فتغمض. رغم ذلك، لم تذبلا بعد عينا موضي الناشزتان، ولم ينفك اشتباك حاجبيها الناشبين في عراك صاخب، إذ تلمح إلى الجدّ الذي تغافلته، ولم أشر إلى سطوته. كيف سأقول أنه زجر الشمعة مرّة، وحين أشعلتها مسَّها بإصبعيه، فنامت ثانية، وفي ظلمة الغرفة تسلل نشيجه خافتاً متقطّعاً، خفَّ قليلاً بعدها، متبوعاً بآهات طويلة ونافذة؛ وسمعته، كأنما يحدِّثني، بغرغرات تشبه لغط موتى أو مجانين، كما لو كان يلمح أنني أعطي الحق كلّه لهؤلاء الأحياء السذَّج بأن يحكوا، يثرثرون برهة، ويكذبون بُرَهاً، نعم، كذبوا كلّهم عليَّ، مستغلين موتي، وعدم قدرتي على كشف أباطيلهم، ناسين أنني أتتبعهم خطوة خطوة، أشرنق خطوهم إن شئت، أعدّ أنفاسهم الزائدة، فهذه المخبولة موضي،

العائشة في سَعَدٍ الآن، مع صغارها أشــباه القطــط، لــم تعرف أنني خطفتُ صغيرها من سنتين فائتتين، إذ كنــت أرقد، ليس في قبري، بل خرجتُ أتنــزّه، ولمّــا تعبــتُ، التجأت إلى خلوة المسجد، الذي أخذتني فيــه غفــوة، لا أعرف مقدارها، حتى غمر الخلوة ماء المجاري، مالئــاً مايفيض عن ثلثي سلمّ الدرج الحجري، المفضي إلى فناء المسجد؛ فسمعت في انتباهتي صوت صــغيرها يطشّــش الماء، أعلى السلّم، فانزلقتُ كسمكة فــي غمــرة المــاء، صاعداً السلّم، لأشدّه من يده الناعمة المبتلّة نحوي، لابــدّ أنهم قالوا لك أنه غرق، وأن أبــاه، فــي ذلــك النهــار الرمضاني، هالَهُ الصوتُ، فهام بسرواله، وفانيلته، فمــه فاترٌ برائحة العَرَق البلدي، لينكفئ على مــاء المجــاري الطافحة في أعلى السلّم، يشربه صارخاً، وكأنما يشــرب رائحة صغيره. لستُ قاسياً وقد شددت الصغير من يــده، لكنني أحتاج من يشرذم معي وحدتي. ألا ترى أننا– نحن الموتى– ندفع الوحدة والوحشة عنّا كمن يبــدّد بحفيفــه وصوته شراذم أناس لاهين يطأون على رؤوسنا ساعات نعاسنا.

وإذ يتوقف الصوت ورائي، أسمع خشخشةً، وكأنمــا يلبس نعلي، ليخرج. ألتفتُ بغتة، فلا أجده، رغم الصوت الذي يمحو ظلام الغرفة، قائلاً إنما لم يكــن فظّــاً، كمــا تفضِّح العاقّة، بل أنني أتنازل عن أملاكي وحقوقي لهــا،

ولأمها؛ هل سمعتَ أنني فقدتُ غرفتي الوحيدة في بيتي؟ متى؟ ستسألني لابدّ؛ حسناً، عند وضع أمها آخر ضناها، في غرفتي، صفّوا أشيائها، ورتّبوها لكي أعود أسـكنها ثانيةً، لكنني لم أعد، لم يسألني أحد، لأنهم حـال تخفـى عليهم أفعالي، يرددون في سرّهم، أو همساً: أنني خرّفت. ليس خرفاً ذاك، بل تأمل طويل، وحدها البنت الصـغرى التي أسرّت إلي بالكلب الساكن في الأعلى، تسألني عمَّـا إذا كنت سأعود إلى غرفتي. قلت لها، فيما أذكر، أن التي تلد، مثل أمها، تكون بحاجة إلى من يساندها في محنتها، كالملائكة مثلاً؛ وبعد أن تنجو من حالتها تلـك، لابـد أن تخرج مع مولودها من الغرفة، لحظتها، ستظل الملائكـة تتجوّل بأجنحتها الرهيفة داخل الغرفة؛ لا تـدري مـاذا تفعل، كأنني أخشى إن عدتُ أسكن الغرفة معها، أن تجد فيَّ عملاً، فتأخذني بعيداً عن البيت، وربما عن الدنيا.

سمعتُ صوتاً، يشبه صوتِي، يجرِّح هـدأة الغرفـة: والشياطين ألا تحضر؟. فواصلَ هاذياً، كأنك تدرك السـرَّ الذي أسلكه مع شبيهتي، تلك الصغرى، إذا رجعـت مـن دكاني الراقد في قاع المدينة، ظهراً، أحاول إشغالها عـن نوم أراه يدلّي رجليه من على جفنيها، فأخرج من جيبـي مرآةً دائرية صغيرة، نكشتها مرةً من برَّايـة بلاسـتيكية خضراء، لأجعل انعكاس الشمس الساقط عليها يتقافز على الجدار المقابل، وكأنما هي عين شيطان زائغة، فتحاول هي

بشغبها أن تصفع الضوء بيدها، أخبرهــا آنــذاك أنهــا إن خبطت هذه العين الزائغة، فإن الشياطين لن تزعجها فــي الظلام، حين النوم، لأنها تكون قد تخلّصــت منهــا فــي الظهيرة.

هكذا كنت أحسُّ بفزعي إذ أنصت للمــوتى، ســاعة ينفضون مكتبي، ويلبسون نعليّ، ويرتشفون مــن كــأس الشاي قبلي. فيكف إذاً سأحضرهم معي، على طــاولتي، وبمشيئتي، بينما هم يفجأون عــالمي وتــأملي دائمــاً أن ألمحهم يجرّون برازخهم ورائهم. هــل كــانوا يشــتّتون حياتي الشائكة ببرازخهم، أم أنني أصلاً، ومنذ ســنوات، أرقد في برزخي الهانئ، وإذا مللت السكينة أزحت غطاء رأسي، المشبوك ببرنسي، وجلْتُ قليلاً، ثم انثنيتُ أكتــب كما الآن. وزاد احتمال ذلك أن ماأكتبه لم يره أحد، فهــل أنا كتبت شيئاً، أم أنها أضغاث موتى؟.

لم أقل لمن يرى أن أكتب رواية أنني كتبت كثيراً، أو ربما هجست فقط- دون أن أكتب- في شخوص ووقــائع وأماكن غريبة، وظننت أنني نضدت خيوط حكايــة مــا، لكنني على أيّ سفّهتُ بصديق أهداني محاضرات كاتبــة انجليزية حول كتابة فن الرواية، وكيف نضــع جــدولاً نرتب فيه فصول الرواية، وتفاصيلها، ثم نصنعها، بــأن أعدت إليه كتابه، دون أن أقول له، أن كتابة رواية تحتاج إلى فكيّن شرسين، لا يكفّان عن الهذيان.

ما يرجّفني الآن، ليس إن كنت أملك فكيّن شرسـين، بل أن يعيث في غرفتي هؤلاء المـوتى، أو أن يتعقّبني الشخوص الأحياء، وهو يشاغلونني، لِمَ ذكرتَ هـذه الوقيعة، لِمَ أهملتَ تلك الوقائع، بل حتى البنت الصـغيرة يحق لها بأن تستوقفني، زاعقة، بأنـك صـنعتني طفلـةً ساذجة، لا تعرف من العالم إلاّ أن تفقأ عـين الشـيطان السحرية وتنام. دون أن تفكّر لو برِهة كيف تنـام هـذه الشقيّة، ليس شقاء الشغب هنا، بل النَصَبْ. كيـف كنـتُ أوقظ فُرُش القطن برشاش الماء مـن رؤوس أصـابعي، لتبرد في أماسي الصيف الدبقة؛ ثم أنصب ناموسية أحتمي بها من البعوض الناهش، لكنني لم أعرف كيف أحتمـي من بعوض البشر؛ لا تسخر مني، فالبعوض لـه أجنحـة رقيقة، لكنه دونما أيدي وأصابع غليظة، وأسنان شرسة. بالأيدي تطيّر الناموسية المنصوبة، وبحفيف يشبه بكـاء الشجر تعصف بالقميص، ثم تغطيني كاملـةً، فتحجـب البعوضة الضخمة عني لوح السماء، ووشوشات النجمات اللامعة. كل ليلة قبل أن أنام كنت أسـتمع إلـى النجمـة الكبيرة تتحلّق حولها نجمات صغيرة، يستمعن أيضاً معي إلى حكاية جديدة. في الليلة الصيفية تلك، لم أنـم علـى حكاية شائقة، بل غبت أو هويت في ظلمة بئر لا قـرار لها، والأحجار التي تردم حوافَ البئر تولول مثل نسـاء حين أمرّ خطفاً أمامها نحو الهوّة، حتى كـأن الأحجـار

تتكرر ذاتها أمامي، وهي تشقّ صدورها. لأفز صـــباحاً بعد غيبوبتي فَزِعةً ودائخة، وعلى طرف قميصي المشجّر بالزيتي والأصفر الداكن، ورقة شجرية حمراء معرّجـــة الحوافّ. لايهم أن تعرف أي بعوضة ضـــخمة جلّلتنــــي بأجنحتها، لكنني لست صغيرة كما تظن، وتغرّر بقرائـــك الوادعين، بل إنني امـــرأة فـــي العاشـــرة، وهـــو كلمـــا اصطدمتُ ببصره في البيت، بعد تلـــك الليلـــة اللعينـــة، أضبطه يقيسني بصلافة بعوضـــة، أودّ كثيـــراً أن أفـــرد أصابعي وأصفعها، ثم أغسل أصابعي من دمهـــا، كمـــا غسلتُ، قبلاً، دمي خلسةً في حمّام ردمتُ بابه من الداخل بإناء بلاستيكي مملوء بالماء.

ثم أن هذا الجدّ الخرف، الذي ربما ضلّلك، وأرهقني بغرغرات الموتى الكريهة، كيف يظن أنني ســـاذجة، أن أسأله عمّا إذا كان ينوي العودة إلى سكنى غرفتـــه؛ ألـــم يرى كيف نقلتُ أغراضي إليها، مع ذلـــك لـــم تقبضـــني الملائكة إليها، وتطير بي في السموات، بل جرّتـــه هـــو بسلسلة طويلة، مع أنه جعل فِراشه في فـــراغ الحـــوش، دون أن ينتبه إليها نازلةً من كوّة البيت العالية المفتوحـــة على السطح، لتقطع أنفاسه الرتيبة بمشرط رهيـــف، ثـــم تأخذها معها؛ يا الله، دوّر على أنفاسك يابو مسعود.

ما أن تحشر ضحكةً مكتومة، حتى تلمّ ذراعيها حول صدرها، إذ تُتأتي بعفوية، ألا تـــدري أنـــت لِـــمَ نقلـــت

أغراضي، لأنني ببساطة لا أملك مكاناً أحفظها فيه، فبعد أن سكنت بيت الدرج السفلي، هنا شنطة المدرسة، هنـــاك كتبي وقصصـــي، وعلـــى الحـــائط ألصـــقت صـــورة الشيكولاتة، وقد نزعتها، قبلاً، من مجلة ملوّنة، ثم أكملت ما بدأته من نقل رسائل جبران خليل جبـــران إلـــى ورق قصصته من دفتر التفصـــيل المدرســـي، ذي المربعـــات الصغيرة، دون أن أعرف لمن سأدفع بهذه الرسائل. إلـــى أن هجم الذباب ماسًّا بقوائمه جدران بيت الدرج، موقّعـــاً بتركته على صورة الشيكولاته، يصحبه بعوضٍ يتـــأرجح أمام عينيّ الصغيرتين، حتى تتابعتْ مدفوعـــةً ببعوضـــة ضخمة أيضاً حقائبي، وكتبي خارجاً، كي تحـــلّ مكانهـــا دراجة هوائيةٌ متربة. وقبل أن أحتل غرفة جدّي الخرف، سكنت شنطةً حديدية كبيرة، تزيّن جـــدرانها الخارجيـــة رسوم لمآذن وقباب ملوّنة، ومنازل، وأشجار خضـــراء، فرحت وأنا أطوي جسدي الصغير داخل الشـــنطة، مـــع أشيائي؛ أحسست وقتها أنني اتخذت مكاناً شاســـعاً، هـــل تعرف كيف خالجني شعور بأنني ملكـــة لمدينـــة مليئـــة بالمآذن والقباب، بالمنازل والأشجار، بالضبط كما المدينة التي تصفها، في ليالي الصيف النجمةُ الكبيرة، المحاطـــة بنجوم صغيرة تنصت برخاوة ونعاس لذيذين.

ستعترضني البنت الصغرى شقيّةً لتســـألني، كيـــف تستمع هكذا خانعاً إلى جدّي الذي جرّح الدودُ عظامَه، أن

يحكي عني مستخفّاً، لا أعرف ألأنني بنت، أم لأنني صغيرة؟ إذا كان فقط لكوني بنتاً، فقد أمتر الطرقات، وأنفض ملاءة المدينة حتى تتناثر شوارعها بين يدي، وأقود الصبية في اللعب، يختارونني دائماً كوعل مستوحش لا يكف عن الإلتفات راصداً لهم بوابة الطريق لحظة يقفزون سور حوش البلدية، المرمي بداخله علب الجبنة والمربّى والسردين، ليطوّحون بها كأنما مطر فاتن يملأ بحباته الشارع، نتلقّفه نافخين به جيوبنا وحجورنا، إلى أن قفز آخرهم خارجاً، فتداعى يتلوّى إذ آلمته حافة العلبة المخبأة داخل سرواله، لكنني ساعة أفاق من خدر الجراحة في المشفى، سرّبتُ له علبة الحلوى التي أوقعته، لزمه بعدها غسيلٌ لمعدته وقد تلوّثتْ بفعل الحلوى العطنة.

لم يكن أيضاً من الصبية من يماثل غضب حجارتي التي أطلقها على شجرة السدرة الضخمة، حتى تكثّ من رأسها العالي ثمرات صفراء صغيرة وناضجة، ظننا أن حجارتنا هي التي تلهب الأغصان الرفيعة، فتنحني ليتقاطر عَرَقها كثمرات مدوّرة، لكننا اكتشفنا أن أصحاب المنزل يقذفون بالثمر الذي ملأوا به الأواني من وراء السور، كي يتّقوا مطر حجارتنا.

لمحتها تعترضني، بينما أمشي أماماً، فاردةً ذراعيها، تتهمني، بكيف تسرق أنت يانكرة، ماقمنا به نحن، ثم

تشبّهنا بالشياه الضالة، وتقودنا أنت أيها الراعي الأمــين، أي أمين أنت، وأنت تدّعي أن غبار الشياه الذاعرة يشــبه الدخان الأبيض للمبيد الحشري الذي يعجّ فــي البيــوت الضخمة، فتدخل أنت كما نفعل، في ضــباب كثيــف، لا يرانا فيه أحد، نعدّ الأعمدة، ونتفحص الأثاث، هل كنــت أيضاً مثلنا تسرق ما جسَّت يداك. فجأةً، كأنمــا عــرف الشمعة في غرفتي يتألم ويتلوّى، يخبو ضوؤه مرةً، ثــم يعلو، لتنساب على أدراج غرفتي حشرجات الجدَّ، والبحّة التي تتسلق الجدران بقوائم ناعمة، كقوائم أسراب النمــل السائر إلى أعلى: أشعر بأسفي أنك تتصت هكذا، لبنــت ساذجة لم تشبّ بعد، ألم تعترضك أمها الملفوفــة الوجــه بغطاية سوداء، ذكرتُ لمسعود ابني يوماً، أنها قد لا تنزع الغطاية حتى في النوم، فضحك؛ ألا تذكر الغريرة تلــك، وموضي أيضاً، كيف تحرضانِ أبداً، حين التوى عــودي إلى الأرض، بأن تدفعاني عنوةً، أماماً، حتى انكفئ، وهي لا تعرف، أعني المغلولة بالسواد، أنني لم أفقــد عقلــي وسمعي بعد، لحظة تتهامس وجارتهــا، حــاكيتين عــن زياراتها للذي يدّعي أنه يخز العين التي تصيب، ويفــك السحر، بحجة أن المعلولة موضي بحاجة إلى مــن يفــك عنها السحر والغموض والصمت الذي قيّدها، ودفع بهــا إلى سكنى غرفة السطح، لم تكن تصحب المعلولة فقــط، بل تطلب الماء لنفسها، كي يَمســح بــه ورمــاً جلــدياً وحساسية، وتصيب صدرها، وهــو الــذي لا يفحــص

المسكونين والمسحورين إلا واحداً واحداً، في غرفة تغمغم في أنحائها الظلمةُ، بحجة أن الجن لا يرون إذ يحاولون الفرار من الجسد المسكون؛ المنتظرون خارج الغرفة يسمعون النهنهات واللهاث، ويتعوذون بالله من شياطين الجن والإنس؛ لابد أن هؤلاء أهل الأرض، الخارجين من الأوادم، وهم يلهثون في ظلام الغرفة، محاولين الفرار.

– – –

يرتعش الشمع السائل أسفل العرف المتذبذب، والجدّ يواصل غرغرته، ستقول أن تلك همهمات ميت، أو أنها فرقعات وزغ يترصد عند فتحة المكيّف.

في اللحظة التي يشفُّ قربي صوتٌ يشبه عراك نمل يتسلق الجدار الأملس، كان ثمة شيء يجلو أدراج غرفتي، الحاوية كتبي، يشير إليَّ، أن لا تلتفت إلى الوراء، هي امرأتي تنظّف بغطاية رأسها السوداء الشفّافة رفوف كتبك.

ياللأصدقاء الذين يحرّضون على جذب هؤلاء الموتى، لينفضوا حياتهم السالفة أمامي كبساط تدوِّخ ألوانه بصري؛ هكذا يظن الأصدقاء، بل يوقنون أن من ينفض حيوات الآخرين على الورق، إنما يتخلص من أرواحهم الحائمة حوله مثل فَراش ملوّن، ثم ينساها تماماً، كما نسي

كازانتزاكي حُبَّه الأول، بكتابة روايته "الثعبان والزنبقة"، ثم تنفّس عميقاً وهو ينظر من النافذة، شاعراً بالإرتيـــاح، لو تنفّست الآن، لتنفّس هؤلاء معي، وهـــم يحاصــــرونني بحكاياتهم الضائعة، وسخطهم على الأحياء والمتزلّفين.

تناثرتْ حولي نتفٌ تشبه فراء قطّة خلصت للتو من عراك عنيف، فخفَّ صوبي صوتُ عجوز لم يلفظ تمامـــاً طراوته، وهي تثرثر لاهثة: كهلٌ عايب، ومغفّل، ماالذي يدلقه هذا الأبله، وكأنما هو صوت رجل يتغـــوط، هـــل للموتى جميعهم مثل هذا الصوت، لـــو أدرك أن صــــوتي الآن، مثل ذلك، لصمتٌّ، كما أنا في كل حياتي الســـالفة، أن تكتب ماتسمعه، فأنت تنقل الغائط فقط للناس البلهـــاء، لأنني عشت كسيحة معظم حياتي، فذات بردٍ، قبل أن تلقي الشمسُ من نافذة حجرة القهوة، أنفَهَا الأحمر، أنجزتُ كل أعمال البيت، استحممت، وجهّزت القهوة والخبز المعمول بالسمن، والنار. كل شيء أعددته قبل أن يرمـــي النـــور وجهه في الحجرة، ورميت نفسي بعيني، ســـائلةً: كيـــف أنجزتِ كل ذلك في لمحة. بعدها، أصبحتْ قـــدميَّ مثـــل خرقتين، أضع أحدهما على الأخـــرى، وكـــأنني أرتـــب قمصاني في خزانة الملابس.

وفي أعوام تلت كنت وحيدة، يقظة في صباح بارد، أجرجر جسدي مثل قطّة مدهوسة الأطـــراف، وأشـــعل النار، ثم أبقى بجوارها أمشّط شعري، وأرمي كل فينـــة

لفّة شعر معقودة، حتى تعالى دخان أبيض كثيف ، مـــلأ حجره القهوة بناس أو جان أشكالهم ضخمة تنوش السقف، لهم أصوات وضجّة، تشبه عواء وفحيح حيوانات شاردة، وكأنها تتراكض في براري فسيحة، وشيئاً فشـــيئاً بـــدأت الأشكال المخيفة بدخانها تتسلل من النافذة، وأنـــا مـــابين الصحو والغيبوبة، حتى سمعت طقطقات، كأنها أغصــــان تتكسر، أو حبات مطر ضخمة تتدفع عنيفة ضاربةً إنـــاءً مقلوباً على قفاه. بعدها، حاولت أن أجــرَّ ركبتـــي إلـــى صدري، فاستطعت. ثم قمت أوقظ هذا الهرم المجنون من نومته، إسأله، هاهو أمامك يهزّ بإصبعه عرف الشمعة.

أعالجه بأن أضغط ذبالة الشمعة المتأرجحة، فيعلـــو دخان أبيض، خيطه متقطّع، مترجرج في أشكال رجـــال يضحكون، ونساء يمررن مغمضات، كيف سأدون، هكذا علانيةً، لحظة تغمض موضي عينيها في دوخة ملائكية، حال يرفرف لسانه الطويل، المتقاطر، كمثل ملاءة حمراء ترعش كل فينة على حبل الغسيل، بفعل هبّة هواء عاجلة والبنتان المحفوفتان بالمغامرة والكشف، إحداهما الصغرى التي صفقت عين الشيطان السحرية، لكنها لم تصفق بعد البعوضة الضخمة؛ والأخرى جارتها، وهما توقفان كـــل هنيهة ملاءات ترجف، إذ تكشفان خلفها لبعضهما أسرار فراشتيهما، وكأنما كل واحدة تلمس بوجلٍ فراشة الأخرى، خشية أن ترفَّ فجأة بجناحيها الشفيفين، فتتضاحكان، قبل

أن تلمحا البعوضة الضخمة، الزاحفة لصق جدار السطح، بعينين ذئبيتين، تكيدان لفراشتين لم تنفذا بعد من شرنقتيهما، ولم تتعودا بعد أن تطيرا.

هكذا بعدها، جاءت ليلة صيفية، لم أرَ فيها سمر النجوم المصطفات حول النجمة الكبيرة، ولم أسمع الحكاية في الليلة الأليمة تلك.

رغم أنني أخشى حضور الشخوص أمامي الآن، في شوارع المدينة، في غرفة الإنتظار لدى عيادة طبية، أو على طاولة مطعم شعبي، لكنني لن أشعر بالإختناق يقبض حنجرتي، ويشدّد قبضته أكثر، كماهي اللحظة التي تدلّي فيها رائحةُ دهن العود قدميها فوق أنفي، فتجعلني أرى الدنيا بنيّة وخادرة، ومسبلة العينين. لحظتذاك، سأتوفّز كوبر قط شوكي، وأنا أتلفّت حولي باحثاً عن الرائحة، السائرة نحوي كغبار معركة لا تنتهي. وسأجده يلقي نظرةً، ثم يجتاز الشارع إلى ضفّته الأخرى، وهو يلمُّ فروته الصوفية، يسير كعجل مستوحش، لايني يقف بغتة، متلفِّتاً، ثم منطلقاً تجاهي، تقرع حوافره المتلاحقة اسفلت الشارع. يقف أمامي، رافعاً رأسه ليحدثني، رغم أن قامتي لا تتجاوزه، مما جعلني أنظر إلى الأعلى. لن أسمع شيئاً أبداً، سوى التحام وانفراج شفتيه اليابستين، كحصان راكض بقسوة على أرض صلدة. لكن رسالته ستصلني، وهو يلوم الذين داواهم وأبرأ جراحهم، وفقأ

الأعين التي أصابتهم برصاصها الطـائش، وكيـف دقَّ بمهفّة الخوص جماجم الجن الرخوة، حالما يقفزون مـن الأجساد هاربين في أنحاء الغرفة. نعم، أُقفل النور، حتى يتخبّطون في الظلمة، وأصطادهم بعصا المهفّة الخوصيّة؛ والنهنهات التي كانت تعلو، كانت نهنهاتهم، وحشـرجاتهم وشهيقهم وخوارهم، وليست للنساء اللاتي أقفل عليَّ معهن باب الغرفة. لم تكن موضـي مسـكونة، ولا أمهـا ذات الغلالة، التي فككتها مضطراً كي أمسح على عنقها بدهن ورشوش؛ صحيح أنها خفّضت رأسها بين كتفيهـا مثـل عصفور، وأغمضت، لكن ليس أكثر من ذلك. ثـم مـاذا تريد أنت بالذات، ولِمَ تفكّر فيَّ، وبأن وحدتي غامضـة، وأنا كهل عاجز، فأهلي وذريتي هنـاك، فـي الشـمال، وحيدي كان هنا معي، يزحف أنين سيارته في أفواه رمل الطريق كلّما سافر، فغرزت في جيبه مسدساً يقيه وعثـاء السفر واللصوص، المـارقين فـي الطـرق الموحشـة كأطياف، لكنه في مساء تأرجح فيه القمر كبالونة مشدودة بخيط مطاطي، هَمَزَه، فطاشت رصاصةٌ، وعركت فروة رأس شادي الولد الوحيد للحجازية الشريدة. هل تعـرف أنها عاشت طويلاً، تنسى وحيدها، وانفراط دماغه علـى جدار المسجد الطيني، حتى تسمع فرقعات الألعاب النارية مع الصغار، صباح العيد، فتجـوب الشـوارع زاعقـة، ممزقة؛ باحثة عنه، وهي تحفر بعدما تخور كللاً جـدارَ

المسجد الطيني بأظافرها، وكأنها تسمع أنَّتَهُ مثل مواء في بطن جدار.

يهفُّ وجهي هواء فروته، وقد طوّح بها، ليغادرني، ثم توقّف ولمٍ يخفُّ بعد لهاث رائحة دهن العود، ويلتفت نحوي مهدِّداً بسبّابته، بأنك لو سمعت عن سالم، الأسمر الغضّ، الذي آويته، وخدمني في كل شيء، أن تفسر ذلك كما تودّ، أو أن يوحي إليك.

تقهقر ثانيةً للوراء، هامساً:

*ماذا تشم؟

–تقصد الرائحة؟

هزّ رأسه، وبتردد أجبت:

–دهن عود؟

نظر باستغراب، فاستدركت:

–ربما رائحة سدر؟

*بل رائحة موتى.

ثم غادر.

هل ترى، أيها الصديق، الذي يسألني ذات مساء، بعد أن تمايلتْ نخلةٌ في فضاء عينيه ودارت، عن متى نقرأ لدينا رواية، وكأنما يحرّضني. هل ترى كيف يطاردني أناس، وكائنات لا أعرفها. هل ترى إلى الجدّ، الجدّة،

مسعود وموضي والصـــغرى، والجـــارة ذات الفراشـــة، والبعوضة الضخمة، والرجــل المتبــوع بحمـــائم، والأم بالغلالة، كيف يطاردونني، كيف يهدّد كل منهم إن أغفلت مايريده، هل ترى يا صديقي كيــف أن الــوزغ يطرقـــع بصلافة، والعنكبوت يهوي بأَنَفَةٍ أمام عينيّ متعلّقاً بخطيه الدقيق، والنجمة الكبيرة التـــي تســـاءلني وهـــي تقــود وصيفاتها، كيف أحضر حكاية الليلة الصيفية البعيدة، دون أن أبحث عن الغائبين، ممن يتمدّدون في فُــرُش قطـــن مبلولة علـــى اســـمنت الســطح، دون أن أنتبـــه للبنـــت الصغرى، وأهشّ على البعوضة الضمة لحظـــة أوعَبَـــتْ خرطومَها.

هكذا أشعر ياصديقي، أن الكتابة قلق أجرّه مثل كيس خلفي، إن أطلقته خففتُ عالياً وغائباً، وإن سحبته كللـــت، ستسألني، مابداخله، أذكر أنني قلت لك، تركـــل بداخلـــه قوائمُ الكلمات، وترددت أن أقول لك، شـــخوص وكلـــس عظام، وسرائر.

كلما أتذكر واحداً، أحاوله وأرخي قدميه في عوالمي، أباغَتُ به يجادلني. لماذا وصفتني بأنني مجـــرّد أســـمر وغضّ، أخفّف وحدة رجل عجوز وأحمق، لافـــرق بـــين رائحة ضراطه ودهن عـــوده؛ دون أن تصـــوِّر شـــتات الطفولة فيَّ، كيف يمرّ بي رجالٌ بجلود رجراجة رخوة، ونساء باردات، فيخترنني من بين أطفال الدار؛ يااللأطفال

الضالين، كنّا نحسد بعضنا، دائماً يحسدونني إذ أمشي من بينهم مزهوّاً بملوحةٍ داكنة على وجهي، وشعيرات ملفوفة كعلامات استفهام متلاحقة فوق رأسي. تصطحبني امــرأة فارهة، تبدو ودودة، رغم انكسار يشبه سقطة مخلب جَــزَّ عذوقَ قامتها. لازلت أذكر ذاك المساء الخريفي، السـماء فيه تحتجب بحمرة قانطة، واكتوبر في الطرقات يسـوق أمامه وريقات شجر جافّة، وهو يركلها بقدميه؛ أيضاً هي ركلتني، وهي تعيدني إلى الدار، لحظتهـا، لـم تسـتطع المربيات وقد اجتمعن أن يخلعن مسامير كفّيَّ، إذ أنشبتها في خصرها، التصقت في حضنها، وزعقت حتى ركعتْ نخلةٌ لصق سور الدار: لن أعودها، لن أفعلها ثانية. كنت أظنّ أنها عاقبتني وقد تبولّتُ ظهيرة ذاك اليوم في حديقة المنزل، وأنَّبتني عنـدها؛ لـم أدرك إلاّ بعـدما كبـرت، وزرتها، أنها حبلت بعد عشرين خريفاً، ربما لو عرفـت آنذاك، لغرزت مساميري في تكوّرها، لأظلَّ معها.

جاء بي، ذات ظهيرة، مسعود، بسيارة الأجرة التـي يمتلكها، وأطلقني في الحي، كما الكلاب الشاردة، عرفت البيوت كلها، نمت فيها كلها؛ وفي السكك توسّدت تعبـي، بل تحت أساسات المسجد، حيث أنيني الخفيض يتصـالح مع أنَّة شادي الطويلة، إذ يغمض فـي أحشـاء الجـدار الطيني. نمت في خلوة المسجد، ذات ليال، قبل أن تغمرها مياه المجاري، وقبل أن يطردني آخر ليلة، الجدُّ الطـائف

في هواء الخلوة كالطيف، وهو يشتمني، ويشتم مسعوداً إبنه، الذي جاء بي، كان يظنّ أنني تركت الخلوة تماماً، لكنني ليلة الغرق، كنت في باحة المسجد، ورأيت الصغير الذي يدنو من طفح المياه في الخلوة، لم أنهه، أو أحذّره، لكنني لم أدفعه بيدي إلى الماء الراكد، ولست متأكداً إن كان ثمّة يد خفيّة لم أرها جذبته، أو قهقهات موتى تلت غرغراته لحظة النزع الأخيرة.

أيضاً، أطلق نحوي عصيَهم الشديدة الوطأة، أولادُ غلاّب، الساكنين بيتاً حجرياً ضخماً، يحرسه عبد أسود غليظ، وسرب كلاب شرسة، حتى نفر الدم من جلدي، وخلّصتني وقتذاك بنتٌ نحيلة، بضفيرتين قصيرتين جداً، وحاسرتين، عرفت فيما بعد أنها آخر سلالة مسعود، وعلّمتني كيف نقتصّ من هؤلاء، بأن نطحن زجاجاً مخلوطاً بالنفيع المرمي لكلابهم اللاهثة، وإذ التهمته تمدّدت ببطون منتفخة، ورائحة فطيس تعجّ في المكان، كيف ضلَّ من بينهم أحدُها، وفرّ من سطح لآخر، حتى وقف بقائمتيه على سترة السطح الأخير، وتمدّد بدعةٍ وخنوع، تاركاً النباح للمارّين في السكك، محتفظاً بهسهسةٍ خافتة، وعينين خادرتين، ووبر ناعم ونظيف، تفركه أصابع رخوة وليّنة.

كثيرون يتثائبون عمّا إذا جرّبت أن أكتب رواية، كما لو كنت سأصنع شاياً في الصباح، أو قهوة سريعة

الإعداد، دون أن يشاركونني رعب أن تشجّ هدأتي البنت الصغرى، متهمة إغفالي بطولاتهـا، أن دبّـرتْ مكيـدةً ناجزة، بأن قهرت جيشاً من الكـلاب بتسـميمها؛ أو أن يلوي مسعود بقرف، وهو يتهمني، بثني الكتابة وقسرها، وتجاهل عمله كسائق خاص، حتى استحالت أَنَفَته بلاطـةً في رصيف، يطأها كل من مرّ، فعضـد نفسـه بنفسـه، وامتلك سيارة أجرة صغيرة، تعوي كللاً كذئبة شريدة في شوارع المدينة، حتى كبرتْ، وصارت حافلـة خاصـة تحضن ركاباً ثمانية، يلوب بهم في شعائر حجٌّ كلّ عـام؛ كيف ترمي كل كدّ الأعوام تلك، وتطلّ من ثقـب، علـى حائط غرفتي، لامحاً شهادة التقدير المبروزة، وكأنما تريد القارئ يسأل ماذا بداخل هذه الشهادة، ولِمَ نلتُهـا، كأنـك تشير إلى أنني جلدتُ الحمائم، ناثراً ريشها الأبيض، حتى نفقت، فضلَّ الرجل المتبوع بالحمائم الطريق إلى بيتـه، ولم يعد يعرف له أثراً. لابد أن تعـرف أنـت أولاً، ثـم القارئ، أن لاشي أبداً يخصّ موضي، ولا انطفاء زواجها الأول، بل المسألة تختلف تماماً، ولا يهمني أبداً أن تعرف الأمر، أنت، ولا الأغنياء الذين تبرر لهم فشـلك فـي أن تصبح روائياً مرموقاً.

أرأيت، ياصاحبي، وقد شرّفتني بأنني أمتلـك اللغـة، والأداة، وأستحضر وحشة الطفولة، وغمغمـات المـرأة، أرأيت كيف يشتمني شخوص من حلمـت أن يصـبحون

أبطالاً لروايتي. أرأيت كيف يتهمونك بالغباء، ويهبـــونني الفشل.

هل تتصور أن تصـــل الحالـــة، مـــثلاً، أن تطـــيش رصاصةً من كف الذي يفزّز بأنين سيارته البراري إلـــى الشمال، وتسكن في رأسي، فترديني، دون أن أجد جداراً طينياً، دافئاً كرحم، يلمّني، تاركاً أعشاباً صفراء يابســـة، تلتصق على سطحه، كأنها أصابعي تفيض زاعمةً أنهـــا ستدوِّن حكاية قتلي.

هل تعتقد أن تطيش رصاصته صوبي، إذا مالوّحت، لو تلويحاً، للذي جعله يفلت شهقة الرصاصة صوب دماغ شادي الناعم كحرير، الفادح بعينيه الجميلتـــين، كوعـــل جبلي. هل تراه يجلو رصاصته، أم أنه سيحضر، لـــيس كالجدّ الذي يقرِّب أنفاسه من عرف الشمعة، فيتأرجح؛ بل كالقط الذي يداهم حجرتي، لا ليسكب الشاي على السجاد، بل ليشرّح جسدي الضئيل.

كيف سأروي لك، تسلُّل البنت الصغرى مع سالم إلى مخزن الأثاث القديم في بيت غلاب، من البـــاب الخلفـــي لبيته الحجري الهائل؛ ومالذي شاهداه في غمرة قلبهمـــا الأثاث والأدوات في المخزن، أتضمن ألاَّ يعترضني فـــي الطريق إليك، سالم، لـــيكمم فمـــي، أو لـــيفض ذاكرتـــي الهائجة، مذكِّراً أن جوهر لا يحكي أبداً، ولا تتدحرج من سالفيه المشدودين أيَّما ابتسامة، وأن أيامه لا تجاوز منشفة

صوف تتعلّق على كتفه، ساعة يصعد الــدرجات بآنيــة تتكفئ عليها فناجين قهوة، بينما ينكفئ هو على الدرجات، وكأنما يمسحها أيضاً بخطمه الطويل، المزموم أبداً. ثــم ينزل ثانية، ترفّ حوله كركرات الهازئين. ربما تســألني يا صديقي، ما إذا كان سالم سيحكي، عن انكماشــه مــع البنت الصغرى، كقطين يتوثّبان، أن شاهدا جوهراً فــي الظلمة، يلتمع على ظهره الأسود بريق ضوء كــاب آتٍ من الخارج، وهو ينحني كصخرة عتيقة، يجأر، في غمرة غمغمة ناعمة متكسّرة تشبه انسكاب خيط القهوة من فــم الدلّة العالي، صوب الفنجان.

كل الذين لمحوه، وهو مسجّى بامتداده الباذخ، فــي صندوق سيارة نقل، محشورة فــي الشــارع الترابــي، أرجعوا ابتسامته الخفيفة النابتة أخيراً حــول الشــعيرات الشوكية البيضاء المهملة في لحيته، إلى الرضا والطمأنة اللتين غادر بهما هذه الدنيا الفانية، وأنه الآن فقط يــرى عياناً بيته في الجنّة.

ربما هو الوحيد، الذي أظنه لن يسلّط عليَّ قطّــاً ذا وبر شوكي، أو وزغاً ذا عينين ناتئتين، أو عنكبوتاً هازئاً بالعالم. ربما أيضاً لن يدني منخريه العظيمين، وشــفتيه الغليظتين من عرف الشمعة الصغير، الذي سوف يستسلم برخاوة إلى أنفاسه اللافحة. لن يفعل أيّاً من ذلك، ربمــا بصمته، وحياد ملامحه تجاه أي حالة تعركه، سيقترب من

الورق الذي أرعى على سطحه قطيع الكلمات، ثـــم يبـــدأ بافتراسها كذئب وحشي، كلمة كلمة، حتى يســيل الحبــر الأسود من شدقيه المتهدّلين، دون أن يحكي أبــداً، كمــا عادته، لكنني سأرى سالماً ينزوي تحــت جــدار عينيــه الشرستين، وكأنه يخفض فروة رأســه الواقفــة فوقهــا شعيرات معقوفة كعلامات استفهام لاتذبل، ولا تتــدحرج، عمّا جاء به، ومن هو، وهل له أبٌ حانٍ أو قاس، لافرق، المهم أن يعرف أين مرَّ أبوه، أي طرقاتٍ عركهــا، وأي جدران امتثَّتْ مستأنسة كقطط، تحت مسٍّ أصابعه لحظــة يمشي لامساً الجدار المحاذي. كأنما يتقطّر الآن سالمٌ من عيني جوهر، مذعناً ببَلهٍ لغرغرة ماكينة الخياطة، وهــي تمجُّ آخر خيط أبيض فرّ من البكرة الخشبية.

هل تعرف أن قرف كتابة رواية يأتي مــن شــغف الشخوص في الحكي، كل منهم يرى أن لحظــة الوقيعــة الآتية، له وحده، رغم أن أي وقيعة لن تكون كــذلك، إلاّ بوجود الآخرين.

هكذا أحسست أن نتف فراء أبيضا، كأنما سفَّها هواء أو أنفاس فوق الطاولة، جعلتني أذعــن لصــوت الجــدّة المتسرّب بغتةً من سقف الغرفــة، مــع خيــوط المطــر المصحوبة بالأتربة؛ أيضاً صوتها، لاتحفّه الحشرجة، أو سعالها كل فينة، بل يأتي غائراً كأنما يصّاعد من سُــحُق بعيدة. نعم، أخشى أن تشوّه الحكاية، أن يثرثر هذا العبــد

بشعراته الملفّفة مثل قصاصات علب فارغة، ويخلط أصل الحكاية، مع نتفها، فرغم أن أبا مسعود حاول أكثر من مرّة أن يغافلني ويقذف بالماكينة في عربة القمامة، الصفراء، إلاّ أنني أقنعته أخيراً، بأن لا أخيط ملابس الناس، لكن سأضطر إلى استخدام الماكينة لأفصِّل ثوبين كلّ عيد لحفيديَّ، هل تصدّق أنني أقتني خاماً أبيض، أحفظه في خزانة ملابسي، كفناً لساعة دفني، نعم إكرام الميت دفنه، وكلّما قرّب العيد، ووافيته، أمزق بياض الكفن إلى نصفين، ثم أصنع منهما ثوبين للعيد، يلبسهما حفيديّ، غلاهما يمكن أكثر من مسعود ولدي، لكنني أدركت فيما بعد، أنني بفعلي هذا، كنت أرسلتهما باكراً إلى الموت؛ فالأكبر لمحناه، في صباح صيفي، وقد تحوّل إلى بعوضة ضخمة، صحيح أن مسعوداً وزوجته ذات الغلالة، لم يكشفا شيئاً، لكننا رأينا الأكبر ينزل من الدرج الحجري، المؤدي إلى السطح، وهو يطوِّح ذراعيه ضائقاً، دون أن يدري إنما يحرك جناحيه الشفّافين، اللذين صارا ينموان ببطء، حتى اكتملا في الظهيرة، إذ انقلب إلى بعوضة، تقدر أن تنفذ من شقوق الناموسية، وتسكب غضارة الماء الملاصقة لفراش قطني. أما الأصغر، فقد دلقت عليه ماء عيني لشهور، وأنا أتخيّله بالثوب الذي صنعته من كفني، فارّاً في الهزيع من ليل خريفي، تاركاً فراشه فارغاً لسنوات، هل يكفي ياحشاشتي، أن يبصق

مسعود أبوك في وجهك، ساعة غضب، لتهيم. ألا تـرى كيف يخفض رأسه هو أن تهوي تجاهـه شراسـة نعـل زبيري، ثم يعيدها أسِفاً، كاثّاً قبلةً ودودة على الكفّ التـي طوّحت.

هل تعرف، أنني صرت أرث نصف الكفـن الـذي يخصّ أخي الأصغر، تناولني إيّاه جدّتي وهـي تـنفض كفّيها ندماً: بنتي موضي انخبلت. لستُ مخبولة، ولا فـيَّ مسٍّ، أو جنون، لكن كيف سيصدقونني، إن قلت أصـنع من نصف الكفن خاصّتي عَلَماً أبيض أثبّته فـي عصـا مغروز في السطح. كانوا يرونني مسلولة ومخبولة معـاً. لم يفّكروا إنما كنت أرشد الحمائم البيضاء الضالة، إلـى مكان المنزل، حتى يأتي بحضـرتها، المتبـوع برفيـف الحمائم. لكنني، بعدما دفعوني بحافلة صغيرة إلى مشـفى العزل، وبعد أيام سبعة بغيضة، تتتابع كسلاحف، سـقط من أذني، داخل مرحاض المشفى، قرطٌ فضّـي، وغـار بعيداً في البالوعِ، حتى يئست منه، فأيقنت آنها، أن أحدهم صعد وأنزل العَلَم الأبيض، من السارية التي صنعتُها لـه في المنزل، حتى لم يعد ثمّة رجاء فـي أن تسـتدل بـه الحمائم الضالة، ولا أن يحضر ذو العينين الزائغتين.

أتعرف، أنني بعد شهور، وقد عـدتُ إلـى البيـت، افتقدت غمغمة ماكينة الجدّة التي تمزّق هواء الظهيرات، ثم أنينُها الذي يبين حال تُوقِفُ عجلة الماكينة الراكضـة،

إذ تغني كما لو كانت داخل صندوق سيارة مغطى بشراع زيتي، يهدر محركها جالداً طريقاً معبّداً في هوّات الرمل الرائبة. وقتها لم يعد جدّي يكرر محاولاته الفاشلة بأن يرمي ماكينة الخياطة في صندوق القمامة الأصفر، لكنها- أي جدّتي- قلّبت ماكينتها على جوانبها، وهي تدفعها، قاصدةً بها باب البيت الخارجي، إذ تدمدم بأنها كلّما فصّلتْ ثوباً يطلع أكبر من قامتها، حتى يئست منها. بعدها بأيام وجدتها أختي الصغرى تتمدد في غرفتها، بلا حراك، تغطي وجهها المعروك بالأعياد، بغطاء الماكينة القماشي، المزيّنة أطرافه بأهداف الدانتيل، الأسود، الذي صنعته في مساء شاحب كوجهي المسلول. هكذا لم يُفِد جدّتي رائحة الماكينة العابقة في غطائها القماشي، إنما سلّمت، وأخذت معها قماش كفنها الأبيض، لاثوب بعدها يجلل البعوضة ذات الخطم الطويل، ولا عَلَم أبيض في هامة السطح.

ليس سوى عصا غليظة عارية، وشاهقة نحو السماء، وكأنما تشير أبداً إلى المكان الذي قصده المفقودون.

هل تعرف أيضاً- وتنهال ضحكات موضي متتالية، شبيهةً بصرير فوط تشطف غبار نوافذ مشفى العزل- أن المدعوين إلى زفاف مسعود، أبي، أدخلوه من بابٍ على أمي ذات الغلالة، ونفروا من الباب الآخر خفافاً، تجاه المسجد، ليصطفّوا، ويكبّروا لصلاة الخسوف، ليس جدّي

وحده الذي قاطع زواج إبنه مسعود، بل أيضاً القمر. يقول أبي أنهم فتّشوا عن القمر ليلتها، لكنه لم يظهر أبداً. لذلك، بعد أن سمعت تلك الحادثة الغائرة في السنين، ظللتُ في طفولتي أرسل أختي الصغرى إلى طرف الشارع الترابي، لأظلَّ في الطرف الآخر، فأسأل عالياً: هل عندك قمر؟ فتؤكد لي ذلك، ثم أعود مع أختي إلى المنزل، وأطمأنها بأن لدينا قمرين، لوهرب أحدهما، سنعثر على الآخر.

ستصرخ يا صديقي عندها البنت الصغرى بأنها ليست بحاجة قمر، يكفي أن تدسَّ أنفَها بين النجوم المصطفات، وتنصت خاشعةً إلى مغامرات النجمة الكبيرة.

حين انهار فجأةً، ذات مساء صيفي، طرف مبنى البلدية، قالوا أن نجماً هوى. ضحكتُ وأنا أداري أسناني المسوّسة بكفّيَّ حتى لا يرونني، ولا يسألون. لأنني لن أقول لهم أن النجمة الكبيرة أرسلت نجمةً تصغي إليها دائماً، إلى حكاياتها، كي تبحث عني، لحظة حجبتني عنها بعوضة ضخمة، ذات أسنان شرسة، ويدين تمزّقان الناموسة المنخولة، من ركنها، فيبقى المسمار مغروزاً، وحيداً وشاهداً في عراء السطح.

هل ترى يا صديقي كم صعب أن تبقى في حضرة مجانين، أحدهم يشدّ كمَّكَ من ناحية، والآخر يشدّك من

ناحية أخرى، وكلاهما يحكيان معاً، بل أنك تسمع أحيانـــاً إلى مجموعة أصوات لاغطة، تخر أذنك، فلاشيء يبقـــى بعدها، سوى رنين لاينفك يمخر سراديب أذنيـــك. هـــذا الرنين ليس سوى حكايات تتناسل، إحداهما من الأخرى، أحياناً حكايةٌ تلفظ الأخرى دونما رابط، يمكـــن أن يحـــكَّ دبيبُهُ راحتَك، مثل نملٍ يصّاعد على عنقك، حتى يقـــتحم أحراش شعرك.

أحياناً، أحس أنها الذاكرة، ذاكرتي ككرةِ ثلج مردومة بحجر، وأنت أيها الصديق الشـــقي مـــررتَ قربهـــا، ولا أعرف، بقصدٍ أو دونه، مسستَ بقدمك حافـــةَ الحجـــر، فتدحرجتْ كرةُ الثلج، بطيئةً في البدء، مالبثت أن انهالت سريعةً، متعاظمةً وهي تزدحم بـــالثلج النـــاس، بـــالثلج الحكايات، بالثلج الوقائع، بـــالثلج الأســـرار، والكنـــوز، والأحلام، والهزائم. وإذ تتضخّم الكـــرة فائقـــةً قـــرصُ الشمس، ترتطم بجدار مائل، فيفرُّ نثاراً مالمّتـــه الـــذاكرةُ لحظة الانثيالِ الحميمِ، حتى تظهر صافيةً، ونقية، وهـــي تُغمض حياداً وتجرّداً.

هكذا، ترى أن ما يعوق كتابتي لرواية هو حضـــور هؤلاء الشخوص بشكل طاغ، يجعلهم يشدّون ثوبي كـــلّ فينة، كما صغار يتشبثون بعبـــاءة أمهـــم الســـائرة فـــي الطرقات، ماذا ستفعل آنها، إما أن تخلع عباءتها وتدعها معهم، يمزّقونها حسبما يشاؤون، كمـــا أفعـــل بـــأن أدع

ذاكرتي يلهون بها، أو أن تخبئهم في عباءتها وتقطع بهم العمر، إذ تحجبهم عن الأعين الشرسة، والهمهمات المحلّقة، كما أفعل لسنين، وأنت تذكر جيداً، كيف ترى شخوصي الفادحين، برهة أخرجهم واحداً واحداً، من جيوب ثوبي، أطلقهم يهنأون فوق إغماضة الطاولة، وكلّما شعرتُ أن الطاولة تنتبه لهم، أعدتهم ثانيةً إلى مغارات ثوبي الداكن.

مايرعبني الآن، وأنا أرخي لك كأغصانٍ، أسباب فشلي في أن أطرق الرواية، أن تكتب لي، كعاداتك المجنونة، ذاكراً أنني هنا، لم أكتب رسالةً، ولم أشرح خلاصي، بل أتقنت تورّطي، بأن أنجزت هنا روايتي.

يا إلهي، هل يمكن أن يكون خريف الذاكرة رواية ما. هل ورق الذاكرة اليبس الساقط كحكايات قديمة وشائخة، يمكن أن يسحَّ فوق الطرقات كأناسٍ ألمحهم يعبرون في رأسي كما لو كانوا خلف زجاج مضبّب.

الأمر لك، إذاً.

هل ترى ياصديقي؟

كنت قبلاً مثلك تماماً، لاأؤمن باللامرئي، أوقن كثيراً بما هو محسوس، بما تجسّه يداي، بما تتلوّى رائحته كأفعى الماء داخل أنفي، بكل مايصطخب في حدود بصري. لا أدع للبصيرة أن تتفلّت من مكمنها، للمارد أن

ينمو من قمقمه، فلا أصدّق أن رجلاً يحمل جبلاً، لا أصدّق أن امرأة ترى في مرآة الأشخاصَ المارين خلسة في مخيلتها، لا أصدّق أيضاً أن شخصاً، ليكن اسمه علاء الدين أو ولي الدين، أو أيّاً يكن، يجد مصباحاً مغبراً، فينتضي من جيب سرواله قماشاً تالفاً، يمسح به غبرة المصباح، حتى يتصاعد دخان أبيض كالثلج، يتشكّل منه المارد القادر على كل شيء، ليبدأ يحقق أمانيه.

لم يظهر لي مارد يحقق لي أحلامي الذابلة كوجوه نساء في سوق في ظهيرة قائظة، بل ظهر لي شخص آخر، أرعبني لوهلة، لكنني اطمأننت إليه.

أنت تعرف يا صديقي أنني أكتب دوماً بقلم رصاص، بل لا أخفيك أنني لاأعرف الكتابة بقلم سواه، منذ الصغر، وقد وجدت تفسيراً لذلك، فيما بعد، وهو أنني لم أحسم رؤيتي في كثير من الأشياء والعوالم والوقائع والحقائق.. الخ. أكتب اليوم ماأراه حقيقياً، في الغد لا أراه كذلك، فأشهر الممحاة، وأخفيه من الوجود، أن تمحو الشيء معناه أنه لم يكن، لكن أن تشطبه، فهو كائن لكنه مشوّه.

في اليوم التالي من كتابتي للرسالة السابقة، التي أطلعك فيها على أسباب فشلي في أن أكتب رواية ما، فتحت نافذة مكتبي، حتى تتسرب منها خارجاً رائحة الموتى وتغوّطهم المستمر الذي انتشر في أرفف الكتب المغبّرة. وجعلت أراجع أصل ماكتبته لك بالأمس، إذ

أرسلت لك نسخة مصوّرة منها. فشعرت أنني لم أحدّد لك بدّقة بعض ملامح الشخوص الذين أوردتهم في الرسـالة، مثلاً، البنت الصغرى من هي، وماذا صارت إليه، وكيف هي الآن، قلت لنفسي سأحدّد اسمها بدلاً مـن الصـفات الميتة، صحيح أنها أصغر أفراد العائلة الطائشة، لكنهـا بالضرورة بإسم، بل أن لها اسم جميل، ومعبّر. قـرّرت لحظتها أن أمرّر الممحاة على كلمة "البنت الصغرى" في الرسالة الأصل كلّها، واستبدلها بإسمها الجميل، ومـا أن بدأت أجلو كلمتي: البنت الصغرى، كما يجلو علاء الدين مصباحه، حتى لمحت كائناً صغيراً جدّاً يتشكّل، في البدء ظننته نثار الممحاة المتّسخ، لكنني لمسته بطرف إبهامي، كأنما كان يتحرّك بحجم نملة صغيرة وكسولة، لا أعرف كيف نما في لمحة، ووقفت أمامي كأنمـا خلـف غلالـة شفيفة سوداء إمرأةٌ صـغيرة، ليسـت سـمراء، لكنّهـا محروقة، كما لو أحرقتها شموس الظهيـرات، وبعينـين واسعتين لامعتين، تشبهان نافذتين مشعلتين في الظلمـة، شعرها كان طويلاً وبنيّاً، برق لحظة غمزتـه الشـمس الساقطة من النافذة، نفضت شعرها عالياً فشعرت بغمامة مرّت فوق بصري، ثم خطت برفق كأنمـا تتـأى لأن لا توقظ الموتى النائمين، متجهة نحو النافذة، لتغلقها، وتعود إلى الطاولة، تزيح بيديها أوراقي، لتجلس مدلّية رجليهـا، محاولة أن تضفي قميصها المنضّد بدوائر خضر وحمر،

ذات أحجام متباينة، حتى يغطّي ساقيها الضئيلتين:
"أنا مزنة"

ابتسامتها تسيل على أدراج الطاولة، وأنا شاخص لا أملك أن أكنسها، بل إنني عندما كنت أدخل في غيبوبة وخدر لذيذين، أرى كل شيء، وأسمع ماحولي، لكنني بالتالي لست هنا:

-أنا مزنة، كنت أتألم على الورق، وأنت تكتبني "البنت الصغرى"، تراني الآن، لست طفلة، لست امرأة، ولست صبيّاً. أنا لست أي شيء، لاشيء إطلاقاً، لست مؤثرة في كتابتك، أضفتني أم أهملتني، وأنا في الوقت ذاته كل شيء في الحكاية.

جعلتني أكشف لصديقك وللقارئ، وللكل تفاصيل أختي، والكلب الذي يهسّ في غرفة علوية، إسمه "لاسي" له عينان تبرقان، لكنها ما إن يفرج قائمتيه قليلاً حتى تذبلان، وصوته يهسّ متقطّعاً ومخنوقاً، وذيله يهزّ كبندول ساعة حائط معلّقة.

كل من يقرأ ذلك، وأولهم صاحبك يظن أن موضي مجرّد امرأة تجرّ مزاجها ونزواتها كأحجار خلفها. هل تعرف أين هي الآن، بل هل تعرف لماذا كانت الوحيدة في الحيّ، بعد خروجها من المصحّة، تمشي دونما عباءة، تقتات الفضلات، وتنام على العتبات الباردة، وتفرّ راعشة

من أحجار الصبية، إذ تنهال مثل عاصفة هوجاء بحبّات برد ضخمة ومائلة.

ترفع بأصابعها المفرّقة خصلات شعر قليلة تدلّت حاجبةً عينها النافذة كسهم، وتتأمل برهةً أرفف الكتب المزدحمة دونما ترتيب، ثم تواصل كأنما تتحدّث لآخرين سواي، لا أراهم رغم أنها تتوجّه له فينة، وترمقني بطرف عينها فينة أخرى:

–في الضحى، من سنين، يجلسن على قهوة مبهّرة، وشاي معطّر بالنعناع، تتيقظ مع رائحته أسرارهن، وأسرار النساء الأخريات، ومكائدهن، والرجال الغائبين في أسفار طويلة لا تنتهي، ثم عند الظهر يحتد رهانهن حول أشياء كثيرة، يتحدين بعضهن بشراسة وجنون، كانت تلك السمراء أبعدهن عبثاً، إذ أرادت أن تشاكس الذي يبقى لساعات متأملاً في سطح منزله المجاور، صوته كان رخيماً، منساباً وسلساً، لا يجرح السكون حوله، بل يأخذ قِطَعاً من السكون ويلقيه على الأشياء والكائنات حتى تخشع. العصافير التي تلهج والشمس تلجأ لمستقرها لا تملك إلاّ أن تصمت في حضرته.

تلك المجنونة، التي نذرت نفسها للرهان، تصمت أيضاً، وتتلظّى ناراً تشبه لهب فرّان في صبح شتائي داكن، يقطع فحيحه صوت القارئ، ويمعن معه نعاس دائخ يطوّح بالعينين وبالروح معاً.

تصمت مزنة لوهلة، ويتشكّل حول سالفيها الـــدقيقين مشروع ابتسامة مباغتة، تنفرط ضاحكةً بخجل، خافضـــة رأسها، كأنما أكملت حكاية السمراء المجنونة ســرّاً فـــي ذاكرتها:

-الله يقطع شيطانك- فعلاً كانـــت مجنونـــة، المهـــم ماعلينا منها- وتدير وجهها نحوي- بعدما عـــادت مـــن المشفى، لم تعد تصعد موضي إلى الغرفة العلويّة أبداً، بل لم تدقّ قدمها الممشوقة المحنّاة عتبـــات ســـلّم المثلومـــة الحافات. كلّ صباح تسوك أسنانها بالديرمان حتى تحمّـــر لثّتها، ثم تجدل ضفيرتها الكثيفة، وتلفّ عباءتها حولهـــا، وتمضي معطّرة أول نهارها معهـــن، بالنعنـــاع الطـــافح الرائحة، ليبدأن الأسرار والدسائس والوشايات الصغيرة، ويراهنّ على أي شيء. هي لم تكن تخف أبداً، تسخر من أي شيء، ومن كل شيء. كانت إحداهن تخاف من الحكيٍ عن الجن وأشباح الموتى، فتحدتها أن تأخذ مسماراً لـــيلاً إلى المقبرة، وتدقّه في جدارها من الـــداخل. لـــم تكـــن موضي ترهب ذلك الموقف أبداً، ولم تلحظ وقتهـــا فـــي عيني الحجازية الشريدة، أم شادي، حيث كانت جالســـة، أي ارتباك أو امتعاض لذكر جدار الطين الذي تظن أنـــه يضم جسد إبنها، حين تراشق دماغه على أعشاب صفراء ناتئة في الجدار.

***

الليل كان بارداً، وهواء الصحراء الثلجي يدقّ العظام– تروي موضي– في يدي مسمار ومطرقة أخفيتهما داخل العباءة، وباليد الأخرى شددت شقّ العباءة، وسرت. كل ماحولي كان خاشعاً، ويدي التي ستدق بسرعة مسماراً على جدار المقبرة تتراءى لي، لا أعرف كيف تعالى فجأة في ذاكرتي زعيق الحجازية، أيام العيد، وهي تلصق إذنها على جدار المسجد الطيني الذي تراشق عليه دماغ وحيدها، وتخمشه بأظافرها المدماة، حين تسمعه يستنجد بها أن تخلّصه من غلاظة الطين. لاأعرف كيف تخيّلت أن مسماري الطويل، ذاك، سوف ينغرز في الطين، نافذاً إلى جسد شادي حبيس الجدران، وكيف سيصرخ ويستنجد بالموتى الذين سيهبّون لنجدته، وسيتبعونني، يجرون خلفي بضراوة، ويقذفونني بنعالهم البالية.

كنت هلعةً وخائفة، أرتجف مثر طير يتشرنق بالمصيدة، لكن إصراراً عنيداً يدفعني، فأتسلّل من باب المقبرة الموارب، حتى كدت أتعثّر بعصا المسحاة الملقاة، فانهزعت قليلاً، وسرعان ماستعدت توازني، وواصلت هرولةً بحذاء الجدار الطيني من الداخل، ثم انتشلت المسمار بيد تنتفض، وصرت أتلفّت في الأنحاء وقد هممت بالبدء. رحت أدقّ، حتى خيّل لي أن صوت الطرقات المتتالية يأتي مرتدّاً من آخر القبور ضجيجاً ولغطاً لا أكاد

أتبينه.

وآن انتهيت من دقّ المسمار الذي صاحبه مايشبه الأنين، انثنيت على عجلٍ لأفرّ، لكنهم انتبهوا إليَّ، قبضوا على عباءتي من الخلف، فتخلصّت منهم، ومن العباءة، وفررت أصرخ وأبكي، وأسمع خلفي حفيف أنفاسهم، أقسم أن لهاثهم كان يطوّق أذنيّ، وصراخهم يعلو وهم يحرضون بعضهم بعضاً، لن يقبضوا عليّ. مع بكائي وصراخي في ليل المقبرة، سمعتهم يلهثون ويضحكون بشدّة، يضحكون مثل مجانين، وأنا أعدو ما بكل أملك من قوّة، حتى نفذت من الباب، وصرت في الشارع أضحك وأتلفّت بخفّة وأبكي.

***

رفعت مزنة ساقيها المدليتين، وثنتهما فوق طاولة المكتب، حتى صارت مثل طائر عار يلتفّ على نفسه في قمة شجرة جرداء، وتشبك يديها حولهما، وبدأت عيناها اللامعتان تذبلان قليلاً، كأنما ناشهما نعاس:

–من يومها، لم تعد أختي تضع العباءة على رأسها، ركضهم وضحكهم خلفها طيَّر شطراً من عقلها، كما قال لنا الإمام، الذي قرأ لها المعوّذتين والزلزلة نافثاً في ماء إناء معدني، لعشرة أيام متتالية، ثم نصح بأن تكوى في مؤخرة رأسها، وفي عصب الرقبة سبع كيّات صغيرة

متتالية، لدرجة أنهم لم يروا وجهها من كثافــة الــدخان المتصاعد، ومن رائحة الشواء المنبعثة من شعرها.

إنخرط فجأة جهاز الفاكس فــي طنينــه المــألوف، والتفتنا فجأة معاً، حيث الورق الخفيف يخشخش خارجــاً من الجهاز بسطور متراصّة، ودون أن أنهض من مكاني قبالتها فكّرت أن المادة المرسلة إليّ توّاً، ســتكون مــن صحيفة ما، لذلك لم أتحرّك، بينما أشــارت هــي بيــدها ممتعضة من الجهاز، ومن طنينه الــذي قطــع همســها الخفيض.

إن كنت لاتؤمن– ياصديقي– بــأن الممحــاة وهــي تنسف وتلغي وجود الكائن إنما كانــت تحقــق وجــوده بطريقة أخرى، كما فعلت ذاك النهار ومحوت، فظهــرت لي امرأة صارت تروي لي حكايات غريبة وخرافية. إن كنت لا تصدق بالأصل، فكيف ستصدّق بالفرع، أعني إن لم تصدّق بالمرأة تلك، وبوجودها أصلاً، فكيف ستصــدّق حكاياتها، وأن الموتى يجرون في المقبرة، قاذفين الداخل بأحذيتهم البالية، قبل أن يسلبو سمنه غترة أو عبــاءة، أو شطراً من عقله.

هناك أشياء، ربما، لاتعود بها إلى العقل، أعنــي أن هناك لامرئيات، قد نحدسها أو نغمض فنراها، كأن تسير في الشارع المحاذي للمقبــرة، فتســمع شــجاراً عاليــاً، وضوضاء، تتلفّت على أثره في أنحاء الشارع، فلا تــرى

شيئاً. أو أن ترى في الصحراء ناراً موقدة يستدفئ حولها رهط من الناس، وحالما تقترب منها، لاتجدها، ولاتجد لها، ولا للناس حولها أثراً.

أحياناً يمكن أن يسقط قرط، كقرط موضي، الذي سقط في مرحاض المشفى، فرأت، ساعتها، أن ذلك يعني أن قماشاً أبيض، موثق في شكل راية تجلب الحمائم والحظَّ والرجل المتبوع بالحمائم، قد خلع وأنزل من ساريته. هل رأيت كيف هي العلاقة بين سقوط القرط إلى الأسفل، ونزع الراية إلى أعلى. هل ترى أنها علاقة ضدّية، رغم أن الراية قد هبطت أيضاً إلى الأسفل.

أنا أعرف انك تُدخل ذلك في باب التخمين، أو من قبيل الصدفة لاغير، لكنك رغماً عنك، قد ترى في عنكبوت ينبت فجأة في الزاوية العلوية لغرفتك، ضيفاً طارئاً، ليس في الحسبان، سيهطل عليك بغتة، لحظة ينقر خفيفاً باب منزلك.

وأنت أيضاً رغماً عنك، حين تنهال حبّات المسبحة على إسفلت الشارع، وقد أدرتها بين أصابعك كمروحة، سيقشعر بدنك، وتحدس أن شيئاً سيسقط منك، إبنك أو عمرك مالك أو ماسواه.

ماذا تسمّي ذلك الذي يستحيل فيه اللامرئي إلى يقين، إو إلى ظنٍّ يصّاعد حثيثاً حتى يصير يقيناً. ماذا

تسمّي تلك الوسوسة التي تنتشر في دمك حتى تكون شيئاً حسيّاً تراه أمامك، كأن ترى الضيف قبالتك فجأة، أو إبنك ينفرط بين يديك العاجزتين.

ربما كنتَ ستسأل، في رسالتك القادمة، بأن أصف لك بدقّة موقفي، من تلك التي نبتت خلسةً في مكتبي، بشعرها شبيه الغمام، وسمرتها الفادحة، عمّا إذا كنتُ ظللت أمثل دور المتلقّي، الذي يتلقّى وحياً أو إلهاماً دون أن يشارك بدوره في الحوار، ألم يتضح لك إن كانت تشعر بأنك حقيقي، وأنك ماثل فعلاً أمامها؟ ألم تسألها شيئاً؟ وتجيبك على سؤالك ذلك؟ بلى يا صديقي، سألت كيف جاءت فجأة إلى مكتبي؟ كيف نبتت مثل نبت شيطاني متسلّق من مجرّد ورق أبيض:

–ماذا فعلتَ؟ سألت.

–فقط محوت صفتك.

–بماذا؟

–بالممحاة؟

–ثم ماذا فعلت؟

–لاشيء.

–تذكّر جيداً.

همسَتْ قليلاً، غامزة بعينها اللامعة، في عتمة المكتب، وهي تطوّح، تناوباً، بساقيها المدلّيتين، وتهزهز

رأسها الصغير أماماً، راصدة تأملي القليل في برهة المحو الخاطفة:

-بعدما محوت صفتي، ماذا فعلت؟

ولمّا وجدّتني أتطامن برأسي تأملاً عميقاً، أضافت:

-ماذا فعلت بنثار الممحاة على الورق؟

نفخت فيه.

هكذا إذاً، نفخت فيه لتزيله، في حركة آلية. هل تعرف أنني في صغري كنت مثلك تربطني بالممحاة علاقة غامضة. أنت مثلاً تحاول بها أن تمحو بعض أبطالك لتلغيهم من نصوصك، أو تمحو الوقائع، وتبدّل فيها حسبما تشاء، لكنني في طفولتي كنت أحلم أن أمحو بممحاتي الواقفة على رأس قلم الرصاص كل الأشياء التي أكرهها. وفي الواقع، كنت أفكّر أن أمحو المدرّسة البدينة التي تسخر منّي دوماً، أيضاً كنت أحلم أن أمحو أخي الشبيه بالبعوضة، على الأقل كنت أتمنى أن أمحو جناحيه اللذين نبتاً في تلك الأمسية الصيفية البعيدة، كنت أتمنى أن أمحو جدّي الشحيح، أمحو أبي، كنت أتمنى لو أمحو سور المدرسة، لتكون دقائق الفسحة مفتوحة على الشارع والناس، كنت أفكر مثل الأطفال الدهشين بالسماء الفسيحة، ولو محوتها، ماذا سيظهر وراءها؟ هذه الأحلام المستمرة جعلت ممحاتي تنفد بسرعة، ربما من أول يوم

دراسي، بينما قلم الرصاص يكون في بداياته، لهذا توصّلت إلى اختراع مبكر، بأن نثار قلم الرصاص الخشبي المتلوّي من موس البرّاية، يمكن أن أطحنه وأخلطه بمادة سكّرية، في إناء صغير حتى يجفّ، ويصير ممحاة. كنت أن أسررت بذلك لزميلتي في طاولة الصف الدراسي، لكنني اكتشفت أن الصفوف الدراسية كلّها تناقلت الاختراع، وعرفَت به المدرّسة البدينة، وأوقفتني في طابور الصباح، لأكون موضع سخرية وعنف شديدين. تخيّل هذا العنف، رغم أنها لاتعرف أن طموحي ممحاة ضخمة بحجمها، أستطيع بها أن أمحوها عن آخرها. ماذا لو عرفت بذلك؟.

تعالى رنين الهاتف في الغرفة المجاورة، قاطعاً تأملاتها الصغيرة، المشاغبة، لتحني جذعها قليلاً ساحبةً درج الطاولة العلوي، دون أن تنظر داخل الدرج، لتدسّ بتلقائية يدها في أقصاه ملتقطة علكاً، تخلّصه من قصديره، ثم تطويه وتدفعه بسبّابتها في مغارة فمها. لم أسألها كيف عرفت أن هنا، في هذا الدرج تحديداً علكاً مخبوءاً، ولم تكترث بي وقد هممت أن أنهض لأجيب الرنين الحادّ والمتواصل، الذي ظننت لوهلة أن يكون اتصالك، لتعلّق على ماجاء في رسالتي السابقة، ثم تختتم المكالمة كعادتك بأنك ستدوّن تعليقاتك كلّها كتابة.

استوت بقدميها الصغيرتين على أرض غرفة

المكتب، وأدارت بحركة آلية غطاية سوداء حول وجهها، وانسلّت طيفاً شفيفاً بجواري، تبعتها في الممر، وتزايدت دهشتي وهي تعرف المكان تماماً دونما تردّد، إذ تنفذ في الصالة بجسدها الضئيل، معيدةً وسـادة زرقـاء مربّعـة وصغيرة اعترضت طريقها، إلى أحد كنبتـين متقـابلتين وسط الصالة، مارّة في مشيتها العجلة بـزرٍّ المصـباح، لتهمزه بسبّابتها، فتغرق الصالة في ظلمة داكنة، ضاعفتها الستارة الزرقاء المسدلة على النافذة الوحيـدة، وبالكـاد اعتادت عيناي الظلمة، واستطعت لمح جسدها الممعن في الصغر ينساب من الدرج سريعاً. وفي فسحة الدرج، عند الإنعطافة الأخيرة لم أجدها، والباب فـي الأسـفل كـان مغلقاً، فكّرت أنها ربما خرجت بسرعة، وأغلقت البـاب خلفها، لكنني لم أسمع أبداً أي صوت لإنغلاق بـاب، أو أزيزه. فتحت الباب وخرجت إلى الحوش الضيّق. كانـت السماء داكنة، والهواء يدفع وريقات يابسة تخلّصت مـن شجرة جاري، الفائضة بأغصانها على حوش البيت. قرب الباب المطلّ على الشـارع، تنـاثرت أوراق إعلانـات مدسوسة من شقّ الباب، أحدها من مطـاعم بيتزاهـت، وآخر من مغاسل رنية المفتتحة مؤخراً، وثالث لشـركة الوطن لتشييد وترميم المباني.

هل تتخيّل يا صديقي، كم مؤلم أن لاتملك أيّ ممحاة، لكي تلغي الكائن، مثلاً، أو الشيء الذي يقلقك. أو أن تجد الكائن الذي يسعدك إلى الأبد، مثل الذي بدلاً من أن يفرك ممحاة ما، راح يفرك مصباحاً سحريّاً، حتى جاءه من يتشرّف بأن ينفّذ رغباته أيّاً كانت.

ألا ترى كيف أن الفرك أو الإحتكاك كفعل بدائي وغريزي يمكن أن يوجد كائناً ثالثاً أو شيئاً ثالثاً، أن تحكَّ شيئين ببعضهما يمكن أن ينشأ شيئاً ثالثاً، أن تحكَّ خطفاً حجراً ما بحجر آخر، يمكن أن ترى الشعلة مثلاً، أن تحكَّ متحركاً بساكن، أو صلباً برخو، أو شرساً بمذعن، تجد شيئاً ما- لم يكن في الحسبان- يتشكّل ويتجسد ببطء.

الريح التي تحفُّ الحجر فتجلوه شيئاً مغايراً، والطير يلامس أنثاه عابراً، فيتشكّل من رخوين ماصلب وقسا، والريح تضاجع رؤوس النباتات، فينمو في بطن الأرض بذراً جديداً، والمرء يقذف بذوره، والمطر يخرق التربة، وكل شيء حولك، في الكون، صغيراً وكبيراً، يدعك بضراوة مايصادفه، ويجلوه جيداً، حتى يتسنّى له أن يراه، أو يرى ماتبدّى وتشكّل منه، مخلوقاً جديداً.

يا إلهي، كم بي لهف لأن أجلو بالممحاة، التي سأسميها الممحاة السحرية، على كثير من الصفات، وقد عرّفت بها على الشخوص، كأن أمرّرها على المتبوع أبداً

بالحمائمِ، أخشى أن يفعل، ويقفز من طـــاولتي، مجنونـــاً مناضلاً، أو ساكناً، أو ندِمَاً على وقته وتعبـــه وبســـاطته الساذجة -كما يرى- وهو الآن عرف كيف يقبض علـــى الدنيا، لا أن تقبض هي عليه، كمـــا فعلـــت ذاك المســـاء البعيد، الذي مشى فيه عبر مقدّمة المنزل، ليعالج البـــاب المطروق توّاً، ففتحه وغاب.

بعد أن عدت من غيابي لسنوات خمـــس -يقـــول- صرت شيئاً آخر، أعرف كيف أغيّب الغنيمة قبل أن تقع في شركك، أعرف في لمح أن أخطف ثقة العالم، حتـــى أعجن العالم هذا، في يدي، وأطوّعه كخرقة، وإن شـــئت تغوّطت فيه، كما فعلت أول ماعـــدت، وصـــعدت إلـــى غرفتي، أو بالأحرى عشّتي الخشبية. عدت مثـــل طـــائر راح يفتّش عن عيدان العشّ، والقش فضّل الطريق. كتبي كانت متناثرة وممزّق بعضها في أنحاء العشـــة، لمحـــت بعجل غلاف "رأس المال"، وعلى الحائط كانت الصـــورة بالأسود والأبيض قد تفلّتت زاويتيها العلويتين من اللاصق وانثنت إلى الأسفل، رفعتُها، فكان كمـــا تركتـــه بقبّعتـــه الصوفية وشعره الطويل ونظرته الثاقبة كصـــقر حـــرّ، وغليونه، يحدّق بي بنظرة محارب عاد للتوّ من موقعـــة شرسة. كنت سأدخل الحمّام، فمزقت الصورة نصفين من أعلاها، وأدخلت نصفه معي. أليست تلك المهمّة اللطيفة، والسهلة التي يمكن أن يؤديها، مادام لم يستطع أن يبحث

عنّي في غيابي كل هذه السنين.

من هنا، قطعت علاقتي به، بكل هؤلاء الثوّار الذين يشبهون قائد معركة يجلس في غرفة زجاجية يدخّن النارجيلة، ويشرب الشاي، ويتلذّذ بمرأى الجنود المطحونين تحت جنازير الدبابات، والمتطايرين بالمواقع المفخّخة.

خرجت ولم أبع كتبي رغم حاجتي، لكنني لم أرد أن أجني على غيري. عملت في أعمال وضيعة، في البدء فلاحاً باليومية، ثم بائعاً للخضار في المدينة، ثم مراسلاً في البريد، ونجّاراً، وبنّاءاً، ثم جمعت البناء والنجارة معاً، صرت مقاولاً بسيطاً، حتى وصلت مأأنا عليه الآن، صاحب شركة الوطن للمقاولات، يسمونني بدءاً، بالمهندس محمد، ثم الشيخ محمد، ليس لدي موظفين كثر في شركتي، أكثر من أدفع لهم يعملون في دوائر حكومية، أدفع لهم شهرياً، ويجلبون لي مناقصات الإنشاءات والترميمات في دوائرهم وجهات عملهم.

أنا لم أتبدّل، لكن العالم حولي كله تبدّل، لكي يحترمك الكل، لابد أن تصير بعض هذا الكلّ، وإن استطعت أن تصير وحدك الكل فهذا بذاته عظيم جداً.

كل هذه المخيّلة تبدّت لي ياصديقي، وأنا أوشك أن أمحو صفة ذا الحمائم، وأسجّل اسمه محمداً، كل هذا وأنا

فقط أراود صفته التي وردت في رسالته الأمس. كيف إذا لو تجرأت ومحوته، كيف سأردم ثرثرته وغطرسته وقد تحوّل إلى إنسان آخر مؤثر في إطاره وناسه.

أنا لست متأكداً، إذا كان يملك شركةً اسمها الوطن للمقاولات، أمِ أنني تأثرت بمسمى الشركة التي وجدت إعلانها مرمياً من شق باب منزلي. ولربما أنها شركته تقذف إعلاناتها في كل أنحاء البلاد.

بعد أن استرخيت على الكرسي الجلدي في مكتبي، ظللت أهجس فيك، كيف تلقيت رسالتي، وتبريري لعدم كتابة رواية، وماذا ستعلّق عليها. في الممر قبل أن أصل إلى غرفة المكتب كان الهاتف يرقد كصخرة، مما جعلني أرفع سمّاعته لأتأكد من حرارته، وأن الطنين الطويل مازال يتلاحق. فكّرت أن الرنين الذي أهملته قبل قليل، بعدما حرّضتني المرأة الصغيرة، ربما كان اتصالك، تذكّرت فجأة الفاكس الذي تلاحقت أوراقه، فاستدرت بالكرسي حيث أجلس، وتناولت الأوراق الأربع من فم الفاكس، تبيّن لي لأول وهلة أنها أوراق غير رسمية، فهيٍ ليست من أي مطبوعة وكذلك الخطّ فيها لايشبه أبداً خطّك، حروفه غليظة ومتشابكة بصلافة، استرعتني الجملة الأولى:

أهلاً أيها الكاتب الكبير!

لا أعرف قيمة علامة التعجّب تلك، هل سخريةً من المرسل مثلاً، أم ماذا؟ لايهم سأقرأ: أعجبتني كثيراً رسالتك إلى صاحبك، قرأتها كلمة كلمة، بل حرفاً حرفاً. يمكن حفظتها حفظاً.

ماهذا يا إلهي، لابد أنني أخطأت في عنوان الرسالة، وضلّت طريقها، حتى وقعت في يدي إنسان لاعلاقة له، ربما لهذا لم يصلني منك أي تعليق هاتفي سريع.

طبعاً ستسأل نفسك: من أين حصل على الرسالة، كيف وقعت في يده، أريد أن أقول لك ألاّ تشغل بالك بهذه الأسئلة، لأنني حصلت على الرسالة، وقرأتها كاملة، بل احتفظت بها لديّ حتى كتابتي هذه. لا تسأل نفسك كثيراً، هل وصلت رسالتك إلى صديقك، وهل الذي قرأته أنا مجرد نسخة مصوّرة منها. ربما ستكتشف في الأيام المقبلة من خلال صديقك، إن كانت وصلت إليه رسالتك أم لا. المهم لابد أن تعرف حتى وإن تقاعدت مبكراً فإنني أملك وسائلي الخاصة. على فكرة التقاعد المبكّر، أنت لم تشر في رسالتك ماعانيته من فراغ ممل، رغم أنني أحسدك على إلتقاطك لأهم تفاصيل حياتي. أنت لاتتخيل كم كبرت مكانتي في جهة عملي، وفي عائلتي وأصدقائي، حين حصلت على شهادة التقدير التي لمحتها عيناك في غرفتي. كنت بروزتها وقتذاك بإطار فضيّ

مشغول بنقوش على شكل أحصنة متتابعة، وعلّقتها في غرفة الجلوس، أتباهى بها أمام ضيوفي، وأكابر. ولكي ألفت انتباههم ناحيتها قرب الركن، أنثني حولها مدعياً أنني أبحث عن شيء على طاولة رخامية في الركن دلّيت عليها وساماً من الدرجة الثانية. ولأنه، بعد تقاعدي المبكّر، لم يعد أحد يدخل المجلس قرّرت أن أنقل اللوحة المبروزة منه، إلى صالة الجلوس الداخلية. ظننت أن امرأتي لم تزل تتباهى بها أمام الزائرات، لكنني بعد أسابيع فوجئت بها تنقلها إلى غرفة نومي. علّقت اللوحة فلم يعد يرها أحد سواي، وسواك أنت الذي أسررت بها لصاحبك، وربما للقراء.

أما الزهر الذي تصفّفه امرأتي على الكومودينة، فقد ظلّت لسنين تبدّل الزهر الجاف، بزهر نضر، فاتن يوشك أن يهاجمني برائحته، لكنها ساعة أن وضَعَتْ شريط الوسام حول الزهور حتى جفّت. شعرت لحظتها أن الوسام جفّف الزهر، أو أنها -أقصد امرأتي- قد كبرت وكفّت عن عادة تبديل الزهور، أو أن هناك شيئاً جديداً ومريحاً يسمى زهوراً مجفّفة.

قبل أن أنسى، أرجو ألاّ تكون ساذجاً وغبيّاً، وتسجّل رسالة ثانية إلى صديقك، بعد رسالتك الأولى، تقنعه أن الموتى فعلاً يخرجون من قبورهم، ويركضون خلف امرأة، هي ابنتي، قاذفين صوبها بأحذية بالية، وحجارة

زلط، لأنها شطرت ليلهم الساكن بمسمارها إلى شطرين.

لك أن تصدّق ذلك، ولك أن تصـدّق ماتشـاء مـن الأساطير والخرافات، وأن تنقلها إلـى صـديقك، وإلـى القراء جميعاً، لهم أن يتندّروا بهـا كـل مسـاء، أو أن يتوجّسوا من كل مايمكن أن يئز تحت سررهم، فيقولـوا هاهم الموتى يتمطّطون في غفوتهم، وأننا ثقيلون لابـدّ بنومنا فوقهم. أو أن يقلقل النافذة هواء يناير، ليقولـوا هاهم بدأوا يخبطون النوافذ بأغصان الشجر وقد جلـدهم برد الصحراء، فصاروا يتقلّبون مثل ورق شجر جاف في طريق عاصف.

لك أن تصدّق أنهم ركضـوا فعـلاً خلـف المـرأة، ونشلوا عباءتها، وشطروا عقلها الضعيف، لكنك لابد أن تتأمل فيما سأقوله لك، تخيّل امرأة يافعة، مرتبكة، فـي ليل صحراء شتائي يلتهم العظم، في ليل سواده يغطـي مدينة بأكملها، تخيّل يغطي مدينة، وليس مجـرد عقـل امرأة ضعيفة، كانت أصـلا مرتبكـة وترتجـف هلعـاً، ويتراءى لها جدّها، وجدّتها، وشادي ابن الحجازية، وكل الموتى الذين تعرفهم، يتراءى لهـا كـل هـؤلاء وهـم ينقضّون عليها بهياكلهم الرجراجة، حـاملين ماتطولـه عظامهم الرخوة، ليقذفوا به نحوها.

ما إن دخلت المقبرة من باباها الموارب، وكادت أن

تتعثّر بعصا المسحاة، والتي ظنّتها بدءاً يد أحدهم تنوي إسقاطها أرضاً، وهي لا تملك أن تسكت ضجّة صــدرها، حتى كأن عصفوراً يرتجف في صدرها الصــغير. حــين ثبّتت المسمار لتدقّه في جدار الطين، دقّت ســهواً معــه شقَّ عباءتها في الجدار، وبعد طرقــات أربــع ســريعة متتالية، أرادت أن تفرّ ركضاً، لكــن عباءتهــا نشــبت بالمسمار المغروز في الجدار، فنفضــتها عــن جــذعها مرعوبة، وركضت تصرخ ظانّــةً أن المــوتى يجــرون خلفها، وأنهم يشدّون عباءتها.

قد تناسبك حكايتها المعروفة في الحارة، وتناســب قرائك الكرام، وتتمنى لو أنك لم تسمعني أقول الحقيقة. قد تسألني كيف عرفت ذلك، كيــف أثبتــه لــك، الأمــر ببساطة أننا ليلتها ظللنا نهــدئ رعبهــا، نقــرأ عليهــا المعوذتين، وآية الكرسي، والأدعيــة، نرشّــها بالمــاء والزعفران، بينما ترتجف وتفزّ كذبيح، تفزّ لأشياء غير مرئية. صدقني نحن لانرى شيئاً، لكنهــا فجــأة ترفــع ذراعها كأنما تتّقي يداً هابطة أو هراوة، وهــي تزعــق وتغمض عينيها، لكننا لانرى شيئاً. ربما تقــول أنكــم لا ترون ماتراه، لأنها شفّافة كبلّورة. لكنني في فجر اليوم التالي، دخلت المقبرة خلسةً، واتجهت هناك، إلى حيــث دقّت المسمار في الجدار، فوجدت عباءتها لــم يخطفهــا أحد، بل كانت منشبة بالجدار بفعل المسمار. المهم أنني

خلعتها بشدّة فانشرخت من منتصفها، وذهبت بها إليهـا لتراها، ويراها الآخرون السذّج، الذي آمنوا تماماً بـأن الموتى فعلاً ركضوا خلفها.

وخطفوا عباءتها وعقلها، ورموها بالحجارة. لكنني قوبلت بالرفض القاطع، وبلبل بعضـهم بـأنني وجـدت العباءة أرضاً وممزقة، بعد أن رماها الموتى، وعـادوا إلى ثكناتهم. فماذا سيستفيد هؤلاء الموتى مـن مجـرد عباءة، لكي يحتفظوا بها. لابد أنهم حين ركضوا خلـف المرأة حتى باب المقبرة، عـادوا أدراجهـم لاغطـين، وداسوا دون اكتراث العباءة في طريق عودتهم، وأنت – يقولون لي– وجدّتها، وجئت إلينا مخترعاً حكاية مزيّفة ومكشوفة.

إن لم يرق لك قولي وثرثرتي تلك، فافعـل ماطـاب لك، واكتب لقرائك ماتريد، سجّل ماسمعته مـن بعـض أطراف الحكاية، وأهمل ماجاء من أطرافها الآخرين.

لم أكترث كثيراً، ياصديقي، وأنا أكتشف أن رسالتي إليك افتضح سرّها وشاعت. وأن أحد أطـراف ماكنـت أخشى أن أروي وقائعهم قد قرأ الرسالة كلّها، وحفظها – كما يقول– كلمة كلمة، فكلنا نعرف أن البريد مشاع، وأن الرسائل دائماً لاتصل. وأنها تضل طريقهـا الصـحيح، وعناوينها المدوّنة على الظـرف، لتسـتقر فـي أمـاكن

ودهاليز غامضة. كل هذا سهل، لا يحتاج إلـــى تفكيــر عميق. لكن ماأربكني حالما انتهيت من قــراءة الفــاكس، أنني لم أكتب في الرسالة حادثـــة المـــرأة ذات العبـــاءة، ودخولها المقبرة، بل أنني ســمعتها فقــط مــن البنــت الصغرى، التي حاولت محو صــفتها، لأكتــب اســمها "مزنة"، ففوجئت بها حاضرة أمامي، في غرفة مكتبــي، تروي لي حكاية أختها موضي والمقبرة. وعند انتهائهـــا فقط، تململ جهاز الفاكس، ولفظ وريقاته الأربع، دونمـــا تاريخ أو اسم أو عنوان. عرفت بالطبع حين ذكر لي في رسالته شهادة التقدير والوسام الــذي نالـــه، أنـــه كـــان "مسعود"، أو الاسم الذي افترضت أنه مسعود في بدايـــة رسالتي إليك. أدهشني كيف سمع الحكاية تلـــك، وعلّـــق عليها سريعاً.

قمت من على الكرسي الجلدي، اقتربت من النافـــذة التي تطل على الشارع، صفقت ضلفتها بغتـــةً بالضـــلفة الأخرى، فاحتدَّ اصطفاق الألمنيوم، ونظرت مباشرة إلـــى الشارع. كانت السيارات ترقد بصـــمت علـــى ضـــفّتيه، وصادف ذلك مرور طفل يسحب وراءه كيساً كبيراً أسود، حتى يقف به لصق صندوق النفايات الأخضر. ثم يركض داخلاً من باب بيت مقابل. فضتُ برأسي من النافذة إلـــى أقصى الشارع يميناً، فلمحت رجلاً يجلس القرفصاء تحت ظل شجرة أحد البيوت. لم أتبينه، ولم أعرف ملامحـــه،

وماذا كان يفعل، هل كان يدخّن، أم يتأمل، أم ينتظر أحداً، أم يراقب، أم.. أم.. انزلقت فجأة راكضاً نحـــو خزانـــة الملابس في الغرفة المجاورة، ومن الرفّ العلوي، حيـــث المناشف وملابسي الداخليـــة، انتشـــلت منظـــاراً عتيقـــاً بعدستين، وركضت دون أن أغلق باب الخزانـــة، لكـــي أستطيع رؤية مايفعل رجل كهـــذه، فـــي شـــارع خـــال وصامت. مددت عنقي من خلال النافـــذة إلـــى أقصـــى اليمين. كانت الشجرة تحرّك أغصانها ببطء وكسل، وفي ظلّها لم يكن هناك أي رجل. بل مجرّد سيارة نقل حمراء تغمض في ظلّها، رأيت في صـــندوقها الخلفـــي، عبـــر المنظار، وريقات شجرة جافة، وفِراشاً ملفوفـــاً بشـــراع زيتي. وقبل أن أصفق النافذة بغضب، لمحت الطفل ذاته يجرّ خلفه بنفاد صبر كيس قمامة ضخم.

في الغرفة ألقيت المنظار جانباً، ورحـــت أتحســـس جدرانها، ألمسها بأصابعي، ألصق أذني علـــى الجـــدران كلّها، أتنصّت بعد أن تلسعني برودتها المفاجئـــة. حتـــى أربكني وكدت أسقط أرضاً رنين الهاتف المباغت. قفزت نحوه قبل أن يكفّ. التقطت السماعة. كانت رنّته الطويلة تعني أنه لم يرنّ أصلاً، أو أن الاتصال انقطـــع قبـــل أن أرفع السمّاعة. يا إلهي، أقسم أنني سمعته، بأذنيّ هـــاتين يرنّ مرة واحدة قبل أن ألتقطه، ماذا حدث في هذا البيت. بعد ثوانٍ من وضعي للسمّاعة فـــي مكانهـــا، رنّ بغتـــة،

فخنقت الرنّة الأولى. كان صوتاً متكلّفاً قليلاً: "ممكن أكلّم مزنة؟" كنت أكره العبث الغبي كهذا، فنهرته بقسوة "الرقم غلط". أقفلت الخط، لكن خطّ هواجسي تداعى بحدّة. لماذا حدّد هذا الاسم. لم يقل هيلة أو سارة أو أي شيء آخر. هل يعرفها أو أنه لاحظ وجودها لديّ. هل لمحها تخرج من باب البيت. هل صوته يشبه صوت مسعود. ندمت كثيراً أنني أهدرت فرصة كهذه، بأن أحكي معه قليلاً، أقول أنها الآن غير موجودة، كي يتصل بي مرّة أخرى. أخيراً أقنعت هواجسي الضالة، أن اختياره للاسم كان صدفةً، أو لعلّه كان صادقاً مثلاً.

لاأعرف كيف قرّرت فجأة أن أتصل بك هاتفياً، طالما أن الرسائل لن تصل. لاأخفيك أنني صرت أخشى هذه الأجهزة. كنت أتخيل وأنا أحادثك لنحدّد موعداً ومكاناً نلتقي فيه، أن صوتاً ثالثاً يتسلّق بيننا، يقاطعني ويرى أن المكان الذي حدّدناه معاً لايوجد في الخدمة الآن، فهو مغلق للإصلاحات. ونكتشف فعلاً أن المكان مغلق. أو أن يقترح الصوت المشاكس أن يشاركنا الجلسة والأحاديث، ويقترح أن يعدّل في الرسائل التي أكتبها إليك، دون أن ندرك كيف عرف ذلك. ويقول أن اسمه مسعود، وأن لديه وسام فضيّ نادر يرغب في بيعه، إن كان بيننا، أو ممن نعرف، من لديه هواية جمع القطع النادرة.

أعرف جيداً أنك ستغضب منّي، وستّتهمني باللامبالاة بأي شيء، والحياد تجاه أي شيء، كيف وقد ضربتُ لك موعداً في بهو فندق صلاح الدين مساء البارحة، ثم لم تجدني. وقبل ذلك أحسستني مرتبكاً وأنا أحدّد لك الموعد في اتصالي بك، وكأنما أخشى أن يهاجم حديثنا شخص ثالث، دون أن أبوح لك بذلك، لحظة واجهت إلحاحك بأنني سأشرح لك كل شيء لاحقاً حينما نلتقي.

كان المساء خريفياً، حمرة السماء وشحوبها تنبئ بمساء كئيب وقانط، توقفت قليلاً في الشارع رافعاً بصري عالياً، فردت صدري وسحبت هواءً تبدّت ذراته أمامي كما بالونات، ثم أسرعت رغم أن أكثر من عشرين دقيقة تفصلني عن موعدك، لكنني فكّرت أنني سأطالع صحف اليوم حتى تجيء. تأكدّت للمرّة الأخيرة أن كل رسائلي إليك داخل المظروف الذي أحمله، بما فيها رسالتي الأولى التي كشفت لك سبب عزوفي عن كتابة رواية، لأنني عرفت من نبرة صوتك آن هاتفتك أنها لم تصل، إذ لم تُبدِ قفشةً أو طرفة ساخرة حول الرسالة كعادتك.

أدرت عجلة القيادة واندفعت مسرعاً حتى إذا ماحاذيت سيارة النقل الحمراء النائمة بسكون تحت الشجرة، قفزتْ من الضفّة المقابلة قطّةٌ سوداء تماماً جعلتني أهمز الكابح لوهلة قبل أن تتوارى تحت السيارة الراقدة منذ أيام. قبل أن أدخل من بوابة الفندق لمحت عن

بعد سيارة هوندا ذهبية صغيرة تشبه سيّارتك، فاستغربت قدومك المبكّر قبل الموعد. الموسيقى لحظة دخلت البهو كانت تتزحلق بنعومة على الرخام، وقطرات النافورة في الوسط تتطاير خفيفة وقلقة. أيضاً أنا كنت قلقاً من مجيئك المبكّر، أخذت جولة سريعة أتفحّص الوجوه المنتشرة في زوايا البهو، لكنني لم أجدك. مجموعات صغيرة من الرجال بمسابح خضراء وبلّورية يقلّبونها بين أصابعهم، يرتشفون القهوة التركيّة، والشاي المنعنع بأباريق فضيّة ذات أعناق تشبه النعام.

المكان الوحيد الفارغ كان بمقاعد ثلاثة، اتجهت نحوه رغم أنه كان محشوراً بين جلستين ملاصقتين. اخترت المقعد المواجه لأتمكن من رؤيتك والإشارة نحوك بيدي. وضعت بهدوء الظرف الكبير بعد أن أزحت قليلاً فنجاني قهوة خاليين لشخصين كانا هنا قبل قدومي. التقطت جريدة الحياة من على المقعد المقابل، مختلساً نظرة لأحد الأشخاص الثلاثة بجواري، وفوجئت بأنه ليس غريباً عنّي. أتذكّر ملامحه جيداً، والندبة فوق الحاجب الأيسر على شكل هلال، والكيّة الصغيرة في طرف شاربه الخفيف. كدّت أبتسم نحوه أو أصافحه، لكنني تردّدت كعادتي حين أتجاهل الآخرين. دائماً أمتلك حياداً تجاه الناس، لا أسعى إلى أحد مالم يبادر هو بذلك. كثيرون يفسرّون ذلك نتيجة لغطرستي وغروري. لكنني لا أرى

ذلك، بل أحرص كثيراً على كبريائي. أظن أن سعيي لأحد قد يجعله يتجاهلني، ساعتها سأشعر أن بيّ رغبة لأن أشنق نفسي. آه يا صديقي، هل صادفت مثل هذه الذات اللعينة.

رمقته وأنا أفرد الصحيفة، فكان يشعل بولاّعة مذهّبة الحافة سيجارته، وينفث دخانها عالياً، قبل أن يطلق شعلة الولاّعة ثانية إزاء سيجارة الرجل المقابل، بنظارتيه الشمسيّتين الداكنتين. ويتسيّد الحديث. بينما أبديت عدم اكتراثي وراحت عيناني تنتقلان تتالياً لموضوع في صفحة ثقافة وفنون، وجعلت أقرأ عرضاً سريعاً عن رواية فرنسية صدرت توّاً، يتآمر أبطالها في نهايتها، مدبّرين كميناً لقتل كاتبها، فارتعشت وأنا أتذكّر رسائلي التي لم تصل بعد إليك:

-أنا أفكّر أكتب رواية. "يحكي المجاور لي، ذو الوجه الذي أعرفه، بصوت أجش قليلاً".

-رواية عن المقاولات "ويفرط ضحكة عالية الرجل ذو النظارتين أربكت قطرات النافورة وسط البهو، تصحبه ضحكات الرجال الثلاثة معاً، حدّ أن ذرفت عينا أحدهم دمعاً.

أحسست أن اللحظة مناسبة تماماً لأسحّ نظرتي تجاه هذا الوجه الأليف، وقد أصبح يحق لي ذلك آن بدّدوا

هدوء البهو، واستدارت أعناق كثيرة نحوهم، قبل أن تعود إلى إنشغالها وهمهماتها الخفيضة. كنت أعرف هذا الوجه جيداً، لكن الذاكرة مزدحمة بالأسماء والتفاصيل:

-لا، صحيح أفكّر أكتب رواية عن روائي.

-هذا لغز أو نكتة. "تساءل ذو النظارتين الشمسيتين وقد بدا أكثر جدّية".

-يا أخي لانكتة ولاغيره. تخيّل روائي فاشل، يحاول دائماً أن يكتب رواية، لكنّه يفشل بامتياز، فيمزّق كل أوراقه التي كتبها، ثم يعيد المحاولة مرّة أخرى، ويفشل أيضاً. تخيّل أن صديقه الحميم يسأله ذات مساء بحري بارد، لماذا لاتكتب رواية، لم يجب بأنه يجرّب ويفشل، إنما أراد أن يكتب له رسالة مطوّلة يبين فيها سبب قلقه من كتابة رواية، وخوفه من الفشل، فيفاجأ أنه كتب للمرة الأولى رواية ناجحة.

-مصادفة حلوة سؤال هذا الصديق، الذي جعله ينجح في كتابة رواية. "قال الرجل الثالث، وكأنما يدفعه ليكمل، بينما أسترق النظر نحو الذي أعرف ملامحه:

-المشكلة بالنسبة لهذا الكاتب ليس فشله فقط من كتابة رواية، بل خوفه أيضاً من الشخوص الذين سيكتب وقائعهم. هو يقول أنهم أشخاص محتملون، لكنه رغم ذلك يخشى أن يظهرون له في أي مكان، فيكتشف أنهم

أشخاصاً حقيقين، وليسوا من نسج خيالهٍ، أي أنهم ليسوا فقط على الورق، بل موجودين فعلاً.

يتوقّف، مرتشفاً من فنجان قهوته بصوت عال قليلاً، ومسبحة بخرز بلّوري مضلّع تداخلت بين أصابعه، وظلّت ترسل بريقاً منعكساً كأنه أفكار شاردة، في حين يصغي الآخران نحوه بانتباه، وأنا أفرد الصحيفة، ثم أرفعها قليلاً لأطمئن على ظرفي المرمي على الطاولة أمامي، وأصغي بريبة وارتباك:

–مثلاً، يكتب عن رجل كلّما مشى في حائط النخل تتبعه حمائم بيضاء، تصفّق بأجنحتها حول رأسه. ثم يفتح باب المنزل وقد سمع نقراً خفيفاً على الباب، فيغيب لسنوات طويلة، لا أحد من أهله يعرف من كان الطارق، وأين اختفى كل هذا العمر. وبعد أن يعود تتغيّر نظرته إلى الحياة، ويعمل في نشاط المقاولات، فينسى أحلامه القديمة الساذجة، وأنه سيغيّر العالم، فتتساه الحمائم، ولا تعود تحلّق فوق رأسه.

يضيف بعد أن التقط أنفاسه، ورشقني بنظرة جانبية أحسستها تخربش وجهي، وتسخر منّي:

–تخيّلوا أنه يظنّ أن هذا الرجل من اختراعه، وأنه غير موجود في الواقع. وصدفة بعد أيام يقابله في الشارع أو في مطعم أو في بهو فندق، بنفس ملامحه التي رسمها

في الرواية، ونفس حياته، لكنه بلا حمائم طبعاً.

ارتبكتُ جدّاً، ونهضت عَجِلاً ونَزِقاً، قاذفاً بالجريـــدة على المقعد المجاور. كنت أنسى الظرف على الطاولـــة، لكنني التقطته سريعاً، وأنا أشعر بلاجدواه إذ كانت رسائله مشاعة بين الناس رغم أنها لم تصل إليك، وربمـــا لـــن تصل إليك. أوشكت أن أصطدم بالجرسون الحامل بـــين يديه صينية عليها إبريق فضيّ بعنـــق طويـــل، وثـــلاث أكواب فارغة. لم أعد قادراً على انتظارك -ياصـــديقي- وقد انتابتني حالة عصبية شديدة، كأنما أمشـــي ويتبعنـــي ليس ظل واحد، بل ظلال كثيرة، تتبعني لحظة، وتسبقني لحظات، وتتشرنق عابثةً بخطوي أحياناً، إلى حـــد أننـــي شعرت بشيء هلامي يعيق خطواتي المتلاحقـــة، وأننـــي بالكاد أدفعه. لفظني باب الفندق بملل، وصرت أهـــرول وأتلفّت خلفاً، بينما سمعت فجأة اصطفاق حمـــائم تحـــفّ رأسي بأجنحتها الضّاجة، أمشي سريعاً على الرصـــيف، أراوغها بينما أخفض رأسي ممسكاً بشـــماغي الخـــافق، لكنها لا تبرحني، تحلّق بعيداً، ثم لاتلبث أن تندفع صوبي، لتجلّل خطوتي القلقة.

اكتوبر 95م - نوفمبر 96م الرياض

النابهة حدّ الضجّة

غبار العتبة

لسنواتٍ، لم تجتز قدمها عتبة الباب، ولم يتلصص ضوء الشارع داخلاً، في عمق منزلها المحشور عنوة بين منازل الحارة، فمنذ أن صارت وحيدة لم تهو من أمام عينيها الكابيتين، ولو لثوانٍ، وصيته الأخيرة، فآثرت ألاّ تمسّ نعلها البلاستيكية الخضراء تراب الشارع، لئلا يتململ حانقاً في تربته إلى يوم الدين.

رغم الغبار الذي يتكاثف على عتبة الباب المهجور، إلاّ أن أعين الخلق ردّدت بأن ثمة ملامح حذاء قد فضّت الغبار، على أن قلّة أشاروا بنظراتهم الحانية، إلى أنها تتقاطر بغلالتها السوداء ومعطفها الصوفي الطويل، خارجة في الليل الملئ بالصراصير وبالصقيع.

لا أحد يجزم تماماً إن كانت قد خطت بقدمها في الشارع، أو أن يحدد شخصاً بعينه، كالبائع في الدكان المتأرجح في ناصية الشارع، أو النظّاف، أو الجار، إلا أنهم جميعاً توقعوا أن أحذية كثيرة ومشاعيب مجلوّة، سوف تنهال بقسوة، على أكداس غبار العتمة، وأن أنيناً

خفيضاً سيعلو شيئاً فشيئاً حتى يخمد فجأة، ويعود كالعادة يعلو الغبار هائلاً، كانساً بكثافته الخطى والخطايا.

وإذ تجلس الحكاءات، ويفضن في الضحى، لا بد أن يذكرن، أنها مذ ارتبك نسيج القميص القطني، بغواية صدرها المتماسك وحتى قبل أن تدخل عزلتها، كانت تحلم بأن ترى البحر، وأن تدخل فيه، نازعة وحشة الصحارى الخاوية، إذ تردّد دائماً:

"أشوف البحر، وأموت".

ولأن النافذة الخشبية الوحيدة المطلّة على الشارع لم تنفتح يوماً، ولم ينفذ عبرها ضوء، أو دندنة لامرأة وحيدة، لم يكن أحدٌ يدرك كم تتنقل وحدها كثيراً داخل أنحاء المنزل الصغير، ولا كيف تدخل غرفته التي يلتمّ فيها رجاله، حتى لو تخيّل الناس أنها تذكر بعضه، بمطالعة أشيائه الحميمة، لم يكن أحدٌ يظن، لو ظناً، أنها في مساءٍ، كذاك المساء البعيد، قد دخلت الغرفة تلك، على أربعٍ، تتشمم رائحته، جائلةً بوجهها على مساند الإسفنج المصطفة على جدران الغرفة، وإذا تشعر بالإنهاك والتعب، تسند ظهرها على الإسفنج، رافعةً وجهها بعينين مغمضتين نحو السقف، حالمة بالبحر، حتى لتشعر بشيء ما يتحرك خلفها، لم تدركه للوهلة الأولى، لكنه عاد يتململ ببطء، ورغم أنها جرّبت أن تلكزه بمرفقها القاسية، إلاّ أنه تسلل هادئاً ذاك الحيوان الإسفنجي، طافحاً

أمام عينيها الجملتين، مخلّفاً فقاعات ترتفع عالياً، حتى أنها لمحت بعض فقاعات مائية تعلو من منخريها الصغيرين، بينما ذراعاها الأبيضان يعومان في موجات ثقيلة من الماء، تفتح عينيها في مواجهة الماء المالح، وحيوانات إسفنجية بأشكال هلامية تحاصرها، تخفق بذراعيها، وتزداد فقاعات منخريها الصغيرين، وبعدما تتوسط فضاء الغرفة، تتداعى وئيدةٌ حتى تلامس القاع، وتقل الفقاعات الناشئة من غابة وجهها كخيط سرّيّ يتسامق عالياً، فقاعات شحيحة، ثلاث فقاعات إحداهما ضخمة، فقاعتان، واحدة، ثم لا شيء.

لا شيء أبداً.

فقط بعض غبار لا يني أن يهدر كقطيع لا حدّ له، فوق عتبة باب منزلها.

ديسمبر 93م

السمكة رأسها ساخن ومدبّب

بهمس المشّائين لصق بابها، ترتبك نوافــذ المنــزلٍ الخشبية الفائضة إلى الشارع، حتى ليحنوا رؤوسهم بغتةً، كأنما يتّقوا كِسَفاً يهوي من ســماءات عاليــة، وإذا مــاً ضبطت أعينهم الذاعرة مفاصل النافذة، إذ تتعــق قاذفــةً ضلفة النافذة إلى فضاء الشارع، أشاعوا أنها لــم تــزل تسكن البيت، حتى إذا ما اكتمل رفيف البث في الحــارة، سمعوه ذاته ثانيةً، مضافاً إليه، أنها أطلّت بوجهها خطفةً على طرفي الشارع.

رُبّ هواء الأماسي الخريفية يرتب أجــزاء جســده الهائل، ثم يسقط خفيفاً من علوٍ صوب كوّة تكشف باحــة البيت، نافضاً الملاءة المطروحة أرضاً، هاشّاً بيديه ريش العصافير الميتة في الباحة، منسرباً كوعلٍ مــن أعاليــه، عابراً المدخل، متسلّقاً نعومة جبس الجــدران للمجلــس، حتى ليفيض برأسه من النوافذ إذ تشرع أياديها لتضــمّه،

فيفضُّ أثواب المشائين، الخاطفين قبالة البيت، ويدغدغ أسفل عنق معروق، كي يدمدم أحدهم: "يمكن هواء".

وحدهم، بقلّة سنينهم، ولمعة أعينهم السود الصغيرة، ساقوا أحلامهم أمامهم، بأنهم رأوها تدلق النوافذ، وتهرق رأسها الرخوة عبرها كالماء. وأن العصافير ذاتها الواقفة دوماً فوق عوارض النوافذ الخشبية، تتكفئ على ظهورها بغتةً، حالما تفرك خشونتها أحجارُ نبالهم المطّاطة في ريش صدورها اللّينة، لتهوي، مرتطمة أجسامها مخضبة بأرضية المجلس، وكثيراً ما أطلّت أعينهم المتلصصة عبر النوافذ، بحثاً عن العصافير، وليس ثمّة شيء، غير غبار يمسح المساند المكسوّة بصوف عليه نقشٌ لحمامة تفرد تاجها، وتحدّق صوبهم، وسجادة جافةٌ أغصانها إذ تشتبك، تواري بغبارها الهادر قطرات دم طرّية.

فقط الذي يبقى بعيداً، يحاول محتدّاً إسماعهم وصوصاتٍ تنأى شيئاً فشيئاً، كأنما طائر هارب ينفذ بريشه، قافزاً على ساق واحدة: "هه، اسمع". لكنهم يجزمون أبداً أنها هي، دون سواها، تسرق العصافير.

الحالمات وحدهن يعرفن وجهها الساخن، وشآبيب عينيها الوالعتين، وهمسها الدؤوب لهن: "البحر". والسوالف إذ تنظمها كعقد عن خرافة الملوحة التي لا تغادر الفم لسنوات.

وحدهن يغمزن لبعضٍ عن خلاء البيت ذي النوافـــذ المدلوقة، عنها، إذ شاهدتٌ الزرقة الغامضة لأول مـــرة، والموجة العالية إذ لا تغطي التماعة السمكة الذهبية القافزة كنصل. كيف انفرطت عجلةٌ، وداست بقدميها البضـــتين الرمل الرطب حتى مدّ ليونته وغمرها. تطاولـــت بـــأن اقتحمت الملوحة، وعيناها اللاهبتان تحددان المكان الذي تهوي في قراره السمكة الذهبية، ثم تخوض فـــي المـــاء المالح الذي يعلو شيئاً فشيئاً، والسمكة اللامعة التي تمعن في الغواية، لاتني أن تقفز قربها، لتلهث ثانيةً ورائها.

حكوا أنها أمسكت بها بين يديها، وقالت: أنها أحسّت بسخونة رأسها المدّبب الناعم، وعينه اللامعـــة الدامعـــة بسخاء، لكنها إذ ذاك اكتشفت أن البلـــل تســـلّل غـــامراً ملابسها، وأن شيئاً ما، بدأ يجذبها ببطء نحو القـــاع، لـــمٍ تشعر به، بل كأنما خدرٌ يفضٌّ جسدها، حتى صارت كائناً يلوب عميقاً تصحبه أسماكٌ ملوّنـــة، بـــرؤوس مدبّبـــة، وناعمة.

فبراير 94م

باذلة أرواحها عيدانُ العنبر، تلك

كمن يثبت قدمه المرتبكة فوق جرف صخري عالٍ، يحطّ في عمق العتمة، قابضاً جبساً متفسخاً تناثر أول ما اعتمد عليه، ما جعله يفزّ فزعاً، وكأنما سمع بعد انثيال كسر الجبس اصطفاقاً، كما لكفين أو لخبطة طائر بجناحين ضخمين ، فالتفت خلفاً ليطمئن إلى أن الآخر، فعلاً، يتتبعه.

وحدها الرائحة المسكونة بالعماء مدّتْ سخيةً ذراعيها الطويلين، متحسسةً سيقانهم المكشوفة، حيث يشدّان بأسنانهما ذيلي ثوبيهما، فتقودهما الرائحةُ، رغماً عنهما، أماما.

لكنهما، في دوخة العتمة القابضة، يسرقهما الضوء الوحيد النافذ رغم الستارة المدلوقة للأسفل، حاجبةٌ المدخل عن باحة البيت، وإذ شدّتها جانباً يدُهُ الراعشة ،

دونما أسنان رهيفة انقضّ، داعكاً أعينهما ليغمضا هلعاً، ذاك الغبار المنحني بذراته الكثيفة مثل عجوز.

وإذا يفتحان أعينهما بطيئين، بوغتا دهشين، أنها لم تسقط أرضاً، تلكم الوردة الضخمة المنسوجة، القائمة على غصن تقطّع بفعل ثنيات الستارة المدفوعة بيده من قليل نحو الجدار العارض.

كسيفٍ فضي مغروز في صدر الباحة، تلتمع الكائنات الصغيرة اللائبة في هالة الضوء الساقط من علو، حيث الكوّة، وتتطاير هائجةً تلكم الكائنات إذ هشّها بيده، فتقاطرت من ملامحه بسمةٌ خفيفة دون أن يرفع حاجبيه المنكّسين، حتى بدا لتابعه إنما يدفع الألم الذي خلّفه حدّ السيف المسنون، الثاقب عنوة سقف البيت.

يلتفت، خطفة، مخطوفاً وقابضاً ياقة تابعه الذي لمّ ارتباكه، لاعناً كسرة المرآة المعلقة على الجدار، إذ تراءت له، مارقةٌ خلفه بغمر شعرها الهائش.

نعلان زرقاوان يتشقلب في سقفهما صرصارٌ أغبر يفرد جناحيه إذ يسقط، ليعود ثانية صاعداً فوق النعلين. أحد فنجاني القهوة المتروكين هملاً، لم تنفك، بعد، من داخل جدرانه الخزفية، حبيباتُ ماء سائلة. قميصٌ مفرود أرضاً يضمّه بيدين قاسيتين غبار رازح الوطأة . خارج الغرفة، في الباحة، تتلصص أعينهما عميقاً ، دون أن

يخطر له هاجس الاقتراب، حال يلحظ مرتبكاً حبائل العنكبوت في فتحة الباب، وعبرها يلمح في جدران الغرفة، إذ تتغرس، عيدان عنبر بذلت رائحتها وغيم دخانها الأبيض المتصاعد ذات ليالٍ باردة ، جاثية.

يطقطق تحت قدمه الثقيلة إذ يستدير قفصٌ لصدر طائرٍ أو فأرٍ يبس، جلدته الشموس والغبار والهواء الهائلِ، فسرت ناعمة في جسده رعدةٌ خفيفة، تضاعفت وهزته هزّاً ، حال انتشر حول وردة أذنه لهاث، كما لو أن أحداً انهمر ركضاً عبر درج السطح، ماشدّه فجأة إلى الالتفات صوب أول عتبة في السلم، وإذ همّ بقبض ذراع تابعه، كان التابع قد سبقه، بأن غمر ظهر كفّه، برجفة يده الضالة.

لا ورد، بغتةً، ينتشر في الفاصل بين الباحة والمدخل، فالستارة المخشوشنة، ملمومٌ ذيلها المنسدل، ومنشبٌ طرفه بعناية في الفسحة فوق الحبل المطاط المشدود على الجانبين، فارتبكا وقد مرّا تحته، متوجسَيْن.

ليس كواحد، ولا حتى اثنين، غيرهما كانا يلهثان في عتمة المدخل، بل أن اصطفاقاً خطَفَ فجأةً، وليس ثمة جبس متفسخ يسقط في أرضية إسمنتية ملساء، وإذ يشدّهما، من أيديهما، من المدخل النازل آخرون ،

يؤكدون لهما أن طيراً أبيض قد خفق توّاً، مارقاً بمنقار أحمر فاتن ، موجّهُ عالياً نحو سماءات بعيدة.

انكفأن جلوساً مغمورات بسواد عباءاتهن، لحظة مرّوا شاهرين، عبر الشارع الصغير، قبضاتهم، وما فتحن أعينهن حتى خفّ حفيف أثوابهم المتسارعة ، وإذ جررن خلفهم أذيال العباءات تعالى، بطيئاً، أنينٌ لباب اصطفق بقوة خلفهم، واستدرن بحذر عيونهن صوب البيت ذاته، ثم تتابعت أعينهن الساهيات صوب خيط طيور بيض فرّ بعيداً تابعنه حتى التهمته عين الشمس الوضّاءة .

مايو 94م

–

الجائل بطيئاً مثل كوكب

النجمة تشير

العينان اللاهثتان ذاتهما، وهما في زحـــام أجســـادنا الصغيرة على حافة الرصيف، تجلدان طــرف الشـــارع الصامت في الضحى الخريفي هذا. بإتســـاعهما هاتـــان العينان كانتا قبل قليل تلهبان تراب الساحة بحثـــاً عـــن قوارير البيبسي كولا الفارغة، حتى إذا ما ملأ صـــندوقه انفرط كغرنوق يرفّ بياض ثوبه تجاه غرفة المقصـــف، ليعود بعدها وهو ينزع ورقة الحلوى، كي يغرسها بـــين شفتيه بامتنان.

يطلق عينيه المتأججتين نحو فراغ الشـــارع، ومـــع ضجّة اصطفافنا على حافة الرصيف، يتطـــاول برأســـه راصداً هسيس الكينا الضـــخمة، التـــي تـــدفع بجـــذعها العريض جداً سور الهيئة الحكومية، ليتصـــدع، كأنمـــا يوشك يهوي، وتشيّع عيناه اليقظتان موكـــب الوريقـــات اليابسة مدفوعة بهبّة هواء خريفي مباغتة.

كلما تعانقت أعيننا، فجأةً، أحـــس بعـــراك عنيـــف، أتوارى بوجهي بعده بعيداً، حتى اللحظة التي كنت فيهـــا أتطلع نحو رأس الشارع، كغيري، منتظـــرين الموكـــب، لأشعر بصخب أنفاس لاهثة، وألمح، حيث التفتُ، عينين ضاجتين، ويدين فوضويتين، إحداهما تحط على كتف من يقف أماماً، وأخرى تدفع رأساً، قليلاً، جانباً، وهو يـــوزّع نظراته الهائجة نحو أول الشارع الخالي.

ينظر فيّ متفحصاً بشدة، ثم ينقّـــل نظراتـــه نحـــو الحقائب المدرسية المسندة بحذاء سور الهيئة الحكوميـــة، ويعلو بصره، خطفةٌ، صوب انحناء أعلى الكينا العظيمة، ليستقر ببصره نحوي، ثانيةً، فأرتبكُ كثيراً وهو يقتـــرب من جانب وجهي:

"إذا جاء، وصفقوا، نهرب".

قال همساً، فلم يتبدل وجهي، فقط هـــززت رأســـي موافقاً ، وأنا ألوي عنقي يســـاراً حيـــث رأس الشـــارع العالي، الخالي إلاّ من وريقات الكينا تزحف يابسة، مـــع فجاءات الهواء الذي ترعش على أثره كرايـــات أثوابنـــا البيض.

بينما تضل منه، ثانيةً، عيناه اللاهبتان نحو السور- السور الذي يذعن تحت وطأة الجذوع الضخمة لأشـــجار الكينا، حتى يكزّ رأسه الإسمنتي إذ يخمشه اللحاء المتفلّق

كل فينة ، كأصطكاك أسناننا في صباحات شباط– لمحته لحظة أن عطف وجهه تجاهي، ووشوشني:

"محمد؟ صَحْ؟".

هززت رأسي بالإيجاب، ففرد أمامي، في زحمة الأجساد المتراصّة على حافة الشارع، كفّه الصغيرة المعروقة، تضئ بداخلها ثلاث كرات من النفتالين. ابتسمت، فأرخى ضحكة مكتومة عالجها سريعاً بكفّه الأخرى.

العينان اللامعتان، بالسواد ذاته، الذي تبرق فيه أضواء المصابيح المدلاّة بسلك كهربائي بامتداد ساحة القصر، البارحة، لحظة يرفع رأسه عالياً، ثم لا يني أن ينفلت من دهشة الضوء، ركضاً، صوب منصة الفرقة، ليهز جذعه الصغير، مصحوباً بإيقاع سريع، ملوّحاً بيده الناعمة تجاه النساء الملمومات حول المنصة العالية، حتى يصفقن، ويزغردن، إذ يطلقن ضحكات عالية، فينزل مشيّعاً ببسمة عاجلة للمغنية السمراء، لائباً بعينيه التائهتين، حتى تضبطانني أتتبع ارتباكهما.

قبالتي يجلس على السماط الممدود، ونثار الرز المنقوع بالصلصة يفرّ على جانبي فمه، وعيناه المتحفزتان ترصدان يده الملتمعة بالزيت، ووجهي.

أحاول القبض على انشغال عينيه، لأهمز جيبيّ الجانبيين بحبات موز خضراء، لكنه باغتني بأن سارع بملء جيبيه دون أن تند عنه التفاتة للتي تجالسه، وقد لثمت نصف وجهها بمنديل ملوّن، ممعنة في تتبع تحركاته، بحاجبين مزمومين للأسفل.

ولحظة علا طلقٌ ناري من جهة الرجال الهازجين بأصواتهم العالية، انفرطتُ ركضاً، خارجاً من البوابة الخارجية، لأدفع في خطفةٍ باب المنزل، فتطوقني رائحة كرات النفتالين الصغيرة:

"أكيد، لابس".

غمغمتُ، وقد سمعت وثباته المنتظمة مصحوبة بالصرخات، قبل أن ألمحه من فرجة الباب الموارب متسربلاً بقميصه الكاكي، شادّاً حزامه، مثبتاً طاقيته الزيتية، المحفوفة أماماً بشماسة ذات نصف دائرة، مادّاً يده تجاه وجهه المرتبك في مرآة خزانة الملابس، لحظة يفرد سبابته كمن يهصر مقبض مسدسه، عابساً بحاجبين مشدودين للأسفل كان أبي، وهو يقف باعتداد، ثم يعود ليخبط بقدمه أرض الغرفة التي فاحت منها رائحة النفتالين، من باب الخزانة المفتوحة توّاً، وقد تناثرت بعض كراته من الملابس المخزّنة، المحفوظة من العثة. تسللتُ خفيّة إذ ينهمك بأوامره بوجهها إلى أشباح رفاقه، ملتقطاً أربع كرات بيضاء لامعة، فارّاً بها من المنزل .

وحالما لمحته، بعينيه النافذتين، قبل أن أدلــف بــاب القصر المضاء بعقود المصابيحِ المصفوفة، تركتُ كرات النفتالينِ فوق الجزء الناتئ قليلاً من السور، حتى إذا ما توسطتُ الساحة الضاجة بأغنية راقصة تطايرتْ شــظايا مصباح تدلّى من السلك الكهربيّ، محدثاً انفجاراً صــغيراً جعل أعين النساء والصغار تحدّق عالياً، حيث بقايا غيمة دخان صغيرة، وكرة نفتالين بيضاء تترجرج بين قــوائم الكراسي المحفوفة حول المنصة والمغنية.

وقد غرز قبضته مكتضة بالنفتالين داخل جيبه، راح يلحظهم بأثوابهم الهفهافة ، وطراوة أعينهم الوادعة رامقةٌ أول الشارع العالي، ويلحظ أيضاً الشنط المرميّــة عنــد أسفل سور الهيئة الحكومية، حيث يطقطق السور لحظة ترخي الكينا جذوعها الضخمة على رأسه:

"آخذ شنطك معي وأنت تركض من بعدي".

مزدرداً لعابي قبل أن أهزّ رأسي بالإيجــاب، وقــد التمعت في عينيه نظراتٌ حادّة كشفرة سكين:

"أيتها؟"

إلتفتُ فوراً إلى الوراء، متفحصاً أسفل السور :

"البنّية".

تعالت عيناه الشــقيتان، وهمــا تتقــدان نحــو أول الشارع، حيث تلتمع ســيارات تهتــز بهــدوء، حمــراء

مكشوفة، وأخرى سوداء، ودراجات بخارية تحفّها، قاذفة بومض أحمر لوّن الجدران وأثوابهم، لتلتهب أكفهم الصغيرة، وتنهمر كموسيقى ابتهاجات أصواتهم الناحلة، فيلكزني في كتفي بأصابعه القاسية، وقد رأيته ينسرب كالوعول تجاه الشنط المركونة أسفل السور، وما أن يلتقطها عالياً، حتى تزداد طقطقة السور الذي تتكئ على أعلاه جذوع الكينا، ويتداعى بهالته وئيداً نحو بياض جسده الضئيل، فتتراءى لي عيناه اللامعتان مفتوحتان عن آخرهما ترصدان الشارع والدنيا قبل أن تغيبا عني في زحام الأجساد الصغيرة المتكاثفة كقطرات.

عينه وهي تهوي خطفاً تحت وطأة السور تشبه نيزكاً، جعلني أظلُّ لليال تلي، آن أستلقي فوق فراشٍ المبلل في سطح البيت، أتحاشى نجمةً عالية جداً، وعاتبة، تحدّق دون أن تشيح، دون أن تهوي أيضاً.

أكتوبر 93م

شتات الموتى

بعد أن دفعتُ جسدي إلى الخلف، داخل مقصـــورة السيارة، كنتُ قد أبقيت قدميّ خارجـــاً، لأزيـــل، بلـــوح الألمنيوم المسبوك لصق جانب السـيّارة، بقايـــا الطـــين العالقة بباطن قدميّ الثقيلتين، وما أن خلصت حتى صفقت بالباب خلفي، لأكتشف ذاهلاً أننا الآن دونما أبي.

لقد كنا قبلاً ثمانية، محشورين بكثافة داخل مقصورة السيارة الكبيرة، إذ نتقابـــل، ملصـــقين بـــذلك ظهورنـــا لزجاجات السيّارة الباردة ، المطلة على شوارع هادئـــة ، في ظهيرة مكتظة بغيمات رمادية، تتحرك بطيئـــة فـــي سماء الرياض، والرياض ما برحت تتقاطر من جـــدائلها حبّات مطر قد توقف للتو، لكن الشوارع لم تزل تلتمع به، فتضيء الجدران المحاذية لبلاطات الأرصفة اللامعة.

وبرغم أننا ثمانية، وأبـــي مســـجّى بيننـــا، بجســـده المطمور ببطانية صوف بنيّـــة فـــي وســـطها وردتـــان ضخمتان صفراوان ، وبرغم التفافنا حوله، ورغـــم أننـــا

نعطي للشوارع ظهورنا، إلاّ أن أعيننا المرتبكة لا تتماس أبداً، إذ تتوزع نظراتنا التائهة في الشوارع المغمورة بمياه المطر، حيث تستضيئ بالتفاتاتنا المتسارع، المتنقلة بين الأشياء، من أبواب الدكاكين مقفلةً ، إلى مظلاّتها الشراعية، نصف مفتوحة، ومبتلّة، ما تزال قطرات تنزلق من أطرافها، إلى شجيرات الأرصفة، خضراء، داخل أقففاصها، تنفلت وريقاتها الصغيرة بالتماعها الفضّي، وما أن أشعر بحركة خفيفة للذي يجلس بجواري، حتى تصطاده عيناي الغائرتان متلبّساً، لحظة أن تحط يده الضخمة، بشعرها الكثيف، فوق ركبة أبي المغمورة داخل البطانية، ثم يهمزها بشدة، كأنه يوّد إيقاظه، لكنه ما يلبث أن يبدأ يضمّد ركبته، وينحدر إلى ساقه الممتدة تحت غطاء البطانية، وألمحه يهمّ بأن يغمض عينيه بشدة، كي يحبس دمعة مباغتة، فأسمع تنهيدة خفيضة تنفلت من حنايا صدره، وأشتغلُ دهشةً، إذ لم يتناهى إليّ أبداً أيٍ آهة، أو حفيف لهاث لأبي، هذا الذي يتمدد بيننا، خالياً من حزن، ها أنت أيها الأب الحاني، الآن، مجرد من أي شيء يتوجك، من بذلتك الكاكي، بجيوبها الفائضة منها رائحة النفتالين، الحافظ من العثّة، ومن حذائك الثقيل ذي العنق، الذي لمَ لسنينٍ قدميك- بعدما تقاعدتَ- حتى تلصصت أصابعهما خارجاً، كأنما تتشمم التراب وتوشوشه. أي صباح فرّ بعيداً تشدّه دوماً كلما التففنا

حولك، حال حشروا قدمك المفلطحة عنـوةً فـي بطـنِ الحذاء، وإذ فرزت تتباهى به خابطـاً الأرض انكفـأتَ، فضجّت جدران الغرفة المحاذية للميدان بكركرات جعلت الحبل المشدود إلى السارية يصطفق مخلّفاً رنينـاً عاليـاً يشبه الضحكات.

ها أنت مسلوب من أي شيء، من النائحات، ممـن يزغردن لانطفائك، لا أحد يزيّن مضيّك بانفعال ما، غير العجوزين الذين يشاركانك، بعد أن تقاعـدت، التعليقـات الصغيرة، والغمزات، واللعنات التي تسيّجون بها الماريّن أمامكم، في محطة الفحم والحطب، إذ تستظلون بعشّـتكم المحفوفة بشراع أبيض حول قوائم خشـبية، والمسـقوفة بألواح الصفيح.

إنهما بشـعيراتهم البيضـاء، وتجاعيـد جبينيهمـا السمراوين، بثوبيهما الصوفيين مرفـوعين، ومربـوطين عند خاصرتيهما، بعنقيهما الفائضين من عمق الحفـرة، كاشفين عن رأسيهما المشدودين بفترتين حمراوين، وهما ينزلانك ببطء، ملفوفاً بقماش أبـيض، خفيفـاً كنـتَ إذ يدخلان جسدك في عمق الشق الجانبي في الحفـرة، ثـم يصوّت أحدهما بالذين تجمهروا معنا حول الحافة: "اللبن".

يناولونه قوالب اللّبن المبتلّة برشاش المطر، يضعانها بترتيب دقيق، كي يسدّا فتحة اللحد. والذي سـرق مـن سهونا وقتا يهمز به ركبتك وساقك الممدودة في السيارة،

وبعد أن أعاد إلى مقصورة السيارة بطانيتك الصوفية البنيّة، ملفوفة حول النعش الخشبي، ألمحه خلفنا يصنع، بيدين ضخمتين، كراتاً طينية صغيرة، ثم يتناول العجوز ذو العين البيضاء، في عمق القبر، كرة طينية صغيرة، يرشق بها الفتحات الضيّقة التي خلّفها اصطفاف قوالب اللّبن: "الطين اليابس حطّه تحت"، منهمكاً كان في غلق الثقوب: "الطين الليّن، آخر شيء، يا جماعة"، بيديه الجافتين يمسّد الطين الطري في كل الجنبات الفارغة، المفتوحة.

لاحظتُ أن أعيناً كثيرة تصبّ نظراتها في عمق القبر، أشخاص كثيرون لا أعرف أياً منهم، أحدهم بجواري، بنظارتين رفيعتين تخفيان خلفهما عينين صافيتين:

"كأن الحفرة غير عميقة؟"

أجبته: "فعلاً".

أرخى ابتسامة عذبة، زادتْ من بهاء تلك الظهيرة الغائمة:

"لا بد أنهم أعطوا مشروع الحفر لمقاول- أضاف- أقصد شركة".

لم أبتسم، بل هززت رأسي موافقاً، حتى تشجّع قائلاً:

"والمقاول إذا لم يعمّق الحفر، أسهل وأوفر له".

أجبته ثانيةً: "طبعاً".

همس بصوت خفيض:

"الله يستر، يمكن مع الأمطار والسيول تطلع الجثث".

بغتةً، صار يومض كنيازك انفلتت توّاً، ذاك النهار البعيد، الذي لمحت فيه أبي متوحشاً، وهو يفزّ واقفاً بين رفاقه، تاركاً عشتهم ترقد بوداعة في عمق محطة الفحم، إذ يمشي خبباً كحصان مستثار، ويقف على رؤوس العمال، بمعداتهم التي يقرقر حديدها الصلب وهو يشجّ جوف الأرض، فتأز الأحجار الكبيرة وتسخن قبل أن تتفتت. أشار إليهم بيديه أن يتوقفوا، وما أن هدأت المحركات حتى انحنى بجذعه الطويل، ملتقطاً من أكوام التراب المنثور على جانبي الحفر الطويل للمجاري، بعض عظام بيضاء ومصفرّة. تفحّصها. نبش التراب بأصابعه، وظل يلتقط عظاماً أخرى، أكبر حجماً، وبعد أن رفع مشطاً كاملاً لقدم أو يد، ورفعه إلى وجهه، أشار إليّ أن: "أحضر كرتونا".

وصرتُ، بعد أن وضعت كرتون موز فارغ، أجمع معه العظام، حتى أنه أنزلني ببطء في عمق الحفر، وجعلني أناوله شتات العظام المتبقية، في لحظة ذهول وتأفف انتشر في ملامح وجه المشرف على تسليك المجاري، تجلّت في همهماته بلغة لا نفهمها. لكن،

تحديق أبي في عينيه الملوّنتين جعله يواري وجهه بعيداً، حتى نفض أبي يديه من التراب، ومضى حاملاً كرتـــون عظام تطقطق مع اهتزاز خطاه الواسعة، وغطّاه ببســـاط مقلّم يلمّ فراشه، المطـــوي بعنايـــة، والمربـــوط بحبـــل بلاستيكي، حيث يرتكن في الصندوق الخلفي لسيارة نقـــل ظفر بها بعد عناء طويل من تقاعده المبكر من الخدمـــة العسكرية، وبعد أن بات وحيداً كعادته، لليالٍ ، في وحشة البراري، لم نعد نلمح أثراً لكرتون الموز فـــي صـــندوق السيارة الخلفي، الذي نتحلّق في باحته، أثناء غيابه، لنغزل الحكايات الصغيرة، ونطيّرها قبل أن تكتمل صوب شجرة الكينا الضخمة جداً في أول محطة الفحم.

ارتبكتُ إذ صوّت أحد العجوزين، مادّاً يده نحـــوي، لأناوله كفّي، فيقفز بنشاط خارج الحفرة. يعقبه الآخر، ثم تتدافع أيديهم بأصابعها المتماسكة، فيهمي، كثيفـــاً، فوقـــه التراب الرطب: "ادعوا له بالثبـــات"، تتـــوالى أصـــوات خفيضة: "اللهم ثبته.. اللهم ثبته"، مددتُ يديّ الـــراجفتين، دافعاً حفنة تراب رطبة، وصغيرة، تتناثر أجزاؤها نحـــو قاع القبر، فأحس بشظايا الفنجان الصيني، الذي رعشـــت جدرانه الخزفية لحظات التفاف أصابع أبي حولـــه، وقـــد تكسّرت جدرانه الرفيعة داخل صدري، لأشعر، بعـــدها، بدوار هائل يلوب برأسي، فأبتعد قليلاً عن أثره.

تحركتْ السيارة بنا في الطريــق الترابــي، أمامــاً، وتحركتْ عيناي الساهرتان متحسســتين هجعــة الأهــل والأصدقاء بنتوءات قبورهم التي ســحّتْ حتــى ســاوت الأرض ، بفعل الليالي وانشقاق السماء، وغمغمة الــريح الشمالية الباردة.

تخطفني من شرودي انكفاءات السيارة على الجانبين، إذ تهوي إطاراتها، بغتةٌ، في الحفر المغمورة بماء السيل، بينما العجوز ذو العين البيضاء، المجاور للسائق، يشــرع نافذته، تاركاً الهواء البارد يمعن داخل صــدره المفتــوح الأزرار، كاشفاً عن فانيلة صوفية بنّية، فاضحاً ارتجافه، إذ يرتفع، عميقاً، صدره، وينخفض ثانية، بآهات طويلة، وعينين ذابلتين، هل يخشى طرقات الموت المباغتــة؟ أم سيفقد حفنات الحبّ غير المملّح، إذ تمتلئ به جيوب ثوبك الصيفي، يا أبي، آن تلمّ العشة في عمق محطــة الفحــمٍ شتائكم، أوقات العصاري، لحظتها، تكون بهيّاً، مطلقــاً للسانك مداه الذي لا يحد، فتحكي لهم عن الجوع والفقر، والحرب، والسرقات الصغيرة، وأسفارك المباغتة، لكنــك لا تحكي لهم أبداً عن مرضك الطويل، إذ تضــم أنحــاء أسفل بطنك بيدك، وتشهق بغتةٌ من شــدة الألــم الــذي يعتريك، وتقنعهم، بعدها، ببساطة وهدوء، أن لا شــيء ينتابك، حين تطلق، مباشرة بعد وهج آلامــك، ضــحكة عالية، هكذا لا يستطيع أحد أن يقبض على حالتــك، ولا

حتى أمي، إذ كنت في دقائق يومك تنقلب من حزن طاغ، إلى ضحكات عالية، وصهيل يرجّ أنحاء ونوافذ البيت:

"لا تنس تمرّ الجامع، نرجّع النعش".

تنبهتُ على صوت الرجل العجوز، الذي قال ذلـــك للسائق، دون أن يلتفت، وبدأتْ قطرات مطـــر صـــغيرة تعانق رأس الزجاجة الأمامية للسيارة، ثـــم تتزلـــق فـــي خيوط دقيقة، يفجؤني، بعدها اشتعال الماسح الأتوماتيكي، وهو يقذف بحبات المطر على الجانبين، وقـــد كبـــرتْ، وتكاثفتْ.

لمحتهم الآن، أقسم أنني لمحـــتهم جيـــداً، بجلـــودهم السمراء، وفروات رؤوســـهم الرماديـــة مبتلّـــة بالميـــاه، وخطواتهم المسرعة صوب حائط المقبرة الطويل، يتّقون به من المطر الكثيف، راعشين.

أدرت رأسي، مرعوباً، للخلف، فلمحـــت مـــن بـــين الحصوات البيضاء الصغيرة المنثـــورة فـــوق القبـــور، أعشاباً خضراء، ناعمة، تهتز رؤوسها، كأنما تحكي شيئاً وهي تروغ بخضرتها عن جنون قطرات المطر الساقطة، إذ تجلدها. ثمة في البعد جسدٌ ناحل وطويل يشـــبه أبـــي كثيراً، أراه يمشي بخطى طائرة مع الآخـــرين صـــوب حائط المقبرة. عدلتُ رأسي أماماً، وأقفلت عينيّ براحتي فوراً، لكنني لم أستطع أن أستمر كذلك طويلاً، وأن أتغافل

ذلك اللهاث الساخن الذي يشفّ حول أذني، لم يكن باستطاعتي أن أتجاهل أكثر من ذلك، وأنا أشعر بالبلل يتخلل نسيج ثوبي حتى يمسّ جلدي، لتسري فيّ رعدة خفيفة، جعلتني، رغم ارتباكي، التفت فوراً إلى الوراء، فأراه في الجزء الخلفي من السيارة مكدوداً يلمّ نحوله لصق الزجاجة الجانبية، بشعيرات رأسه البيضاء المبتلّة، وشعيرات خفيفة أيضاً تثنّت بفعل المطر على سطحي يديه اللتين تلمّان أطراف البطانية البنّية من أركانها، فتعلو وردتان صفراوان، وضخمتان. لم يكن ينظر تجاهنا، كل وجهه كان مصوّباً نحو زجاج السيارة الخلفي الذي تتزاحم في رأسه حبّات مطر لاتني أن تنفرط سريعة في خطوط متعرجة.

أرجعتُ وجهي للأمام، إثر تسبيح العجوز ذي العين البيضاء، المسبوق بآهة ثقيلة، أفرغ بها هواء صدره، فتكاثف سريعاً بخارٌ في بطن الزجاج الأمامي، لأسمع بعدها طقطقة عظام جافةٍ وهي تصطدم ببعضها، ثم تتساقط، وكأنها تسقط من علو شاهق، التفتُ إلى الخلف، فكان أبي يشد البطانة البنيّة من أطرافها الملمومة عالياً، ثم يرخيها ثانيةً نحو سطح الجزء الخلفي من السيارة، كي يدنيها قربه، ويبقيها بين قدميه المحفوفتين بطين طري، لتشتبك عيناي الساهرتان بصخب عينيه، إذ وجدتهما متوقدتين، وصافيتين، يلتمع في بؤبؤيهما بريق هائل،

فنقلتُ بصري محدقاً تجاه البطانية، حتى كأنما فهم إشارتي، إذ تناهى إليّ صوتٌ راعش وخافت لا يكاد يبين تحت وطأة المطر: "جدّتك". كان يشبه صوته، لكنه أكثر بحّة.

ولم أكن أفزع كثيراً، فيما بعد، في البيت، حال تحفّ أذني هزّات باب البيت، وكأنما يد تخمشه أو تحاوله، فقط أتأكد من باب غرفته إذ ما زال كما تركته مواربـاً، لأنسحب خفيفاً، على رؤوس أصابعي، تاركاً له فرصة أن يتسلل بهدوء، ثم يتوارى تحت لحافه الأبيض دونما ضجّة.

أواخر يونيو 92م.

مساء في أواخر فبراير

مكدوداً أحط قدمي في شقتي الصغيرة العارية، حتى يفضي الممر المظلم بي إلى غرفتي، أضيء المصباح، فيباغتني أبي عابساً، وكأنه يشير بيده الضخمة ذات الأصابع الطويلة نحوي، أو كأنه قائد سرية يؤشر لبدء معركة فاصلة، آه يا أبي، الذي توظف في العشرين جندياً سائقاً، وتقاعد في الستين، أيضاً، جندياً سائقاً، كنت قد ألقيت بجسدي المنهك فوق فراش الإسفنج، عاري الجوف، وتنقلت عيناي الغائرتان في أنحاء الغرفة، بجدرانها المسكوة بورق لاصق، مزدان بورود ضخمة، تساقط معظمها فوق بلاط الغرفة، مما جعلني أمزق شرائح الورق المليء بالورد والمتدلي كالأغصان، حتى بانت أرضية الجدران بطلائها الزيتي اللامع، وفي قلب الجدار الملاصق للباب ترقد صورته بالأسود والأبيض، بلباسه العسكري، ويده الممدودة باتجاهي، أما صدر الجدار المقابل فقد استولت عليه نافذة مستطيلة، بضلفتين مربعتين، محفوفتين بأطر معدنية، وعلى زجاج كل ضلفة

شريطين لاصقين، متعامدين ، لم ألصقهما إلا البارحة، إذ كنت أهزأ، كثيراً، بالـــذين يكممـــون فتحـــات نوافـــذهم وزجاجها بالأشرطة اللاصقة، خوفاً من المواد الكيماويـــة التي قد ترشها في سماء المدينة طائرات غـــارة جويـــة مباغتة، لكنني البارحة، بعد أن اشـــتعل أنـــين صـــفارة الانذار، بنصف ساعة، سمعت رجفة هائلة ضـــجت لهـــا الجدران والأبواب والنوافذ ، وانخلـــع لعنفهـــا الخشـــب السميك الذي يسد فتحة في الجدار تسمح للمكيف بأن ينفذ بعنقه من خلالها، وأحسستني، فجأة، فـــي العـــراء، وأن الكيماويات تملأ السماء، وتنفذ إلى غرفتي، إلـــى فمـــي، وفتحتي أنفي، فأموت ممددا كالبهائم. لم أكن أخشى كثيراً أن أموت، لكنني أرتجف رعباً لأن أموت فطيسا، وتمـــلأ رائحة جثتي النتنة أنحاء غرفتي الصغيرة، فلم أفكر أبـــداً أنني سأموت هكذا، دونما قطرة دم واحدة، بـــل كنـــت أحلم دائماً بأنني سأموت طعيناً أو مقتولاً ببندقيـــة صـــيد ذات مدى بعيد، وأنا أمشي في زحام الشوارع، مضـــيئاً، بصخبي، ظلمتها الممعنة، حتى أحس بوخز يثقبني فـــي منتصف ظهري، وسائل ساخن، طالما دار بجنون داخـــل جسدي، يتدفق ببطء، ثم ينهمر كرشـــاش المـــاء، يكســـو بياض الجدران، وبلاط الرصـــيف، والاســـفلت، ويبقـــى لسنين عديدة خاثراً مجمداً بين حصوات الاسفلت الناتئة.

كثيراً أحاول أن أغمض عيني الساهرتين، لكنني منذ أن تلبّس الشارع المحاذي ذلك الصمت الهائل، بت أشقى طويلاً كي أنام، وإن نمت فمضطربا، ورعشا، كم كنت أهمي باذخا، مكتظاً بالنعاس، فوق فراشي الاسفنجي، لحظة أن كان الشارع ممتلئاً، وضاجّاً بالعربات والسيارات، والحافلات بسائقيها يصوتون" عليا، دله"، وأبواقها العالية، والشتائم تنهمر على المارة، والدراجات الهوائية الكبيرة، التي ينهض فوق مراكبها الصبية بثيابهم البيض مثل نوارس، وأصوات الباعة المفترشين الرصيف حيث يعلنون عن تخفيضاتهم الدائمة، وصراخ "سالم" اليماني ، ولعناته المتطايرة في وجوه الصغار العابثين ببضاعة بقالته الصغيرة، القابعة بوداعة عند مدخل العمارة، أين هذا كله مني الآن؟ أينه؟ كيف أنام، هادئاً مطمئناً إلى صباح سيأتي مشعلاً بحفيف مراييل رمادية لتلميذات صغيرات، مثبتة فوق أكتافهن الضئيلة أحزمة حقائب الجلد، إذ يفضن من أبواب وطيئة، وتتسلمهن دروب ضيقة دافئة، تفضي بهن إلى الشارع العام، كنت أهجس بأن ليس من هذا شيء الآن، لا السيارات، ولا الحافلات الراكنة إلى الرصيف المجاور لباب العمارة، لا هدير محركاتها الحثيثة متسارعة كي تجتاز الإشارة، وهي تفتح لها، لا أصوات الباعة، ولا الشتائم والشجارات الحميمة، لا صرخات "سالم" اليماني،

ولعناته المتناثرة، لا شيء في هذا المساء سوى إشــارات التقاطع في الشارع العام، وهي تضئ وتخفت بالبرتقالي، حيث لا سيارات تنظمها، والشارع ممعــن فــي صــمت هائل، يجعلني أستمع جيداً إلى دقات خفيضــة للمبــات لوحة الإعلان في رأس البناية المقابلة، وهــي تتنــاوب الإضاءة بين الأحمر والأزرق، حتى المحلات المحاذيــة للعمارة تضفي سكوناً هائلاً وهــي معتمــرة بالأقفــال السوداء الضخمة، لا شيء سوى ورق مقوى ملصق على باب البقالة الصغيرة، اللصيق بمدخل العمارة، كتب عليها بخط رديء، باهت "المحل للتقبيــل، لــدواعي الســفر". تذكرت الأصدقاء كلهم، حينما غادروا واحداً واحداً، كــم كانت ترقص بهم جنبات هذه الغرفــة الصــغيرة، وكــم ضجت بلمســات أقــدامهم العاريــة بلاطــات المطــبخ الخضراء، والإبريق مملوء بالماء، ويغلي، حافل مقبضه بالتفاف أيديهم الحانية، والأواني ترفــل بهيــة بملمــس أصابعهم وخشونة ظهر الاسفنجة، والمياه تتدلق من فوهة الصنبور صوب الحوض، كم تدفأ جدران شقتي العارية بأصواتهم العالية، حوارهم، واختلافهم، والبحّة في صوت الذي دلق الشاي فوق اللهب الأزرق حتى أخمده، بســبب أن أحدنا رفض قصائده لكونه نشر آخرها في مجلــة لا تحفل بحلمنا الجميل، والذي يحكي لي دائماً عــن التــي نسجت له، لثلاث سنين، مركبة، من سعفات خضــر، لا

يحدها سقف، تطوف بهما المدائن، عن عينيها الكحيلتين، وشعرها المقصوص ما دون الكتــف بعنايــة، ويــديها، وأصابعها الرفيعة الناعمة، وصخبها، وجنونها، ويحكــي أيضاً بأسى، عن عقوقها الطويل، تنفست مستلقياً فــوق فراش الاسفنج العاري من قماشه "يا لعقوق الأصدقاء".

موغلٌ هذا اليقينٍ فيّ، بأنني لن أنام الليلة هذي دونما ضجة، فقمت خارجاً منٍ باب غرفتي، متجهــاً صــوب المطبخ، كي أصنع شيئاً ألمّ به شتات جوفي، وقبــل أن أدخل من باب المطبخ، وجدتني أمشي عبر الممر الضيق، المؤدي إلى باب الشقة الخارجي، فتحته، ومــددت يــدي جهة الجدار الملاصق للإطار الخشبي للبــاب، وهمــزت باصبعي ضاغط الجرس، فرن، حتى ضــجّت جــدران الشقة، وارتعبت، لأقفل الباب ثانية، هاجساً بجرس الباب الذي لم يرن منذ قرابة شهرين، والهاتف الذي يرقد فــي الممر كصخرة، همست "لعلها سافرت"، وانعطفت داخــل المطبخ، فاتحاً باب الثلاجة الصــغيرة الخضــراء، كــي أخرج جبنة صفراء بغلاف نــايلونٍ شــفاف، وصــحنا بيضاوياً به عسل جنوبي، وملتقطــاً باصــبعي زيتونــة خضراء، لأضعها داخل فمي، ثم أتناول خبــزاً مثلجــاً، وقبل أن أصل بها إلى الغرفة، وجدتني أضعها في الممر الضيق، قرب جهاز الهاتف الذي رفعت سماعته، فباغت أذني رنين متصل، لألتقط، بعدها، من جوار فراشي عدداً

من جريدة الشرق الأوسط، أفردها من المنتصـــف فـــي الممر، أوزع فوقها وجبتي الصغيرة، أغمس جبنة ملفوفة بخبزة باردة في العسل، ألوكها بصعوبة، متـــذكراً أننـــي نسيت أن أصنع شايا ترخي حرارتـــه "يبوســـة الخبـــزة الثلجية، في لحظة تعالى بها أنين صـــفارة الانـــذار فـــي الخارج، مما كرس كسلي، وبقائي دونما مشرب ســـاخن يدفئني. كنت أتكئ بظهري إلى الجدار البارد، وأصـــابع قدمي تلامسان الجدار المقابل، وهذا الأنـــين المتواصـــل يقض هدأة الشارع، ويجعلني أترقب، في خشوع يقطعـــه اصطكاك فكي، يلوكان الخبز، الهزة التي تـــرج جـــدران غرفتي المتواضعة، لأحس بعدها أن يد أبـــي الممـــدودة صارت تتراقص، ورأسه بطاقيته الزيتية المحفوفة، أماما، بشماسة بلاستيكية سوداء، كأنه يهبط ويمشي بخفة، ساحباً زجاج النافذة، ومطلاً على الشارع المحـــاذي، حتـــى إذا اطمأن إلى حال المدينة، عاد أدراجه، وقفز داخل الإطار، ماداً يده نحوي، كأنه سيأخذني معه إلى الشمال حيث تقيم أمي، وسيحكي لي طول الطريق عن بطولاته في الجيش، حينما شارك في حروب الجنـــوب، كيـــف كـــان يرفـــع الصخور الضخمة بيد، ويدحرجها من هامة الجبل، مباغتا الأعداء، وكيف يسطو على المعزة الجبلي، وينحرها بحد السكين الرهيف، ليسد بها جوع الرفاق، إذ يشعلون نـــارا عالية، ويسمعون في المغاور صدى ضـــربات الطبـــول

البعيدة، "كانت أيامنا شقاء" يــردد، بينمــا رددت أنحــاء المدينة صوت انفجار بعيد، وبعده بدقائق، توقــف أنــين الصفارة، وعلا رنين الهاتف:

"هلا، بها الصوت".

"تسلم لي، يا بعد حبي وحياتي".

"الحمد لله، إذ سلمت أنت، الباقي بالشيطان".

لكنها، هذه المرة، لم تبك كالعــادة، مســتجدية بــأن أطلب إجازة من الشركة، وأسافر إليها، ربما اقتنعت بأنهم رفضوا إجازتي إطلاقاً، ولربما ملت، أو أنها عرفت أنني ما زلت أنتظر صوت التي أشعلت اللوعة، وغابت، فمنذ أن بدأ الناس يغادرون لم تعد تسمعني صوتها، أو تهــبط في ظلام الغرفة، قبالتي، فتملأ رجفات قلبهــا الصــغير غرفتي، لنلمح معاً وجه أبي، وهو يكف عــن عبوســه، متخذاً ملامح محايدة، وإن كانت فرحة قليلاً، رافعاً يــده الممدودة، مؤدياً التحية تجاهنا. كنت أحكي لهــا، فــي اللحظة ذاتها، عما يفعله أبي الآن، المشدود إلى الجــدار، فتتضاحك دافعة جسدها الصغير، الملفوف بقميص قطني، نحوي.

ما إن هممتُ بلف الجريدة المفرودة من منتصــفها، والمتناثرة فوقها بقايا الطعام، حتى لمحت فــي الزاويــة السفلى منها إعلانــاً صــغيراً عــن "أبــو بنــت، الأرز

الأمريكاني"، فابتسمت، وأنا أقذف بالجريدة المطوية داخل سلة القمامة أسفل حوض المجلى في المطبخ، إذ لم يدخل شقتي منذ استأجرتها أي نوع من الأرز، فإن تيسر لـيس مطلع كل شهر طلبته في المطعـم أول الشـارع العـام. أطفأت لمبة الغرفة، وقبل أن أتسلل إلى فراشـي مشـيت نحو النافذة ، هاجساً بالمادة الخانقة، التي ستجعلني أتمدد مثل بهيمة، ساقطاً من طولي الباذخ، رأسي يناوش طرف فراشي، وبقية جسدي على أرضية الغرفة الصلبة، وبعـد أيام ستملأ رائحة جثتي أنحاء الشـقة الصـغيرة، وقـد تتسرب الرائحة إلى الطوابق الأخرى في العمارة، لكن ، من سيأتي ويأخذ جثتي، ليدفنها؟ من سيسأل عني؟ وأنـا وحدي أسكن الشقة، والعمارة خالية من أهلها، والدكاكين أبوابها مقفلة، والشارع يخلو من ناسه. لربما سأل عنـي مصطفى المصري، بل أنه سيفقدني، وأنا الذي يهمـزه، كل عصر، بريال، يناولني به أربع حبات مـن الفلافـل المقلية مع ربع خبزة ساخنة، هـل سـيفقدني؟ أم سـيفقد الريال اليومي؟ لا فرق، المهم أنه يعرف طريقي، وأنني أسكن العمارة هذي، وهذا يكفي لأن يتتبع خيط الرائحـة الكريهة، والتي ستزداد بالطبع، حدتها، كلما ازداد اقتراباً من بابي، ربما سيلقي فوق جثتي بعض الجرائد، متوهماً أنه في الشارع، وأنني مت بضربة غادرة من الخلـف، وأن الذباب ينوس فوق الجرح الغائر، مطلقاً رنيناً باهراً،

ومفرحا، لمقتلي. سيضطرب كثيراً مصطفى، وسيتعب كثيراً، وهو يفكر أين؟ يا حبيبي يا مصطفى، هل تحبني إلى هذا الحد؟ حتى بعد موتي؟ ارتفع صرير مرور الإطار المعدني لضلفة النافذة بمجراه، لتفجؤني أضواء لوحة الإعلان في البناية المقابلة. أتطاول، وأنظر في عمق الشارع، لا شيء فيه أبداً، لا حركة، ولا صوت، سوى تكات صغيرة، تنبعث من تناوب اشتعال لمبات النيون، الحمراء مرة، والزرقاء ثانية، ثم كلاهما معاً. طالعت "شماع ملكي"، وأسفل منها، بخط نسخي جميل "صنع انجليزي أصلي"، ابتسمت وأنا أهم بإغلاق النافذة، لحظة أن أحسست بيده الضخمة تحط على كتفي، وأنفاسه المنتظمة، الهادئة، تدب عالياً حول أذني، حتى أدرت رأسي ببطء، كي لا أباغته، فكأنني لمحت وجهه غاضباً، متقلباً، أحمر مرة، وثانية أزرق، بفعل أضواء النيون، وبسرعة مذهلة صفقت ضلفة النافذة، فكان أبي يمد يده نحوي، مشدوداً، داخل الإطار، إلى الجدار.

فبراير 92م

هذا الصباح لي

قبل أن أفرك عينيّ أو أفرد صدري في تثاؤب اعتيادي، شرعتُ أتحسس فروة رأسي الهائشة بيدين أطالعهما كل فينة، حتى إذا ما اطمأننت إلى خلوها من دم رأسي، صرت ألمّ شتات ذهني، متذكراً نومي المتقطعٍ ليلة البارحة، واليدين الضخمتين اللتين دفعتاني، عنوة، من ظهري الضئيل، حالما تجرأتُ، بعد تردد مضن ومملِ، وخطوات صوب نافذة غرفتي المطلة على الشارع المحاذي للعمارة التي أسكن، وسحبت الضلفة الزجاجية للنافذة، مباغَتاً ببياض الفجر، المتوّج بالتلاميذ الصغار، يوقظون بلاطات الأرصفة الرمادية، برفيف أثوابهم البيض، ورائحة الصلصال ممتزجة بالبيضِ، ساخناً، داخل فطائر، في أعماق حقائب الجلد، التي تضمّهم، بوحشية، من ظهورهم الصغيرة.

محفوفاً كنت بهذا الصباح البهي، بالتلاميذ، بهدير محركات الحافلات تشق الهدأة، بصباحات الخير يتبادلها

الباعة، وبصحو العم حسن بواب العمارة، ورأســـه مـــن الأعلى مضموم بطاقيّة مطرّزة، هاتفاً بعــد أن يســحب كرسياً آخر، بصوتٍ نعس: الشاي يا أبو راشد، ويقطـــر من محل قص المفاتيح المجاور رجل أشيب، بثوب مفتوح الصدر ، وبكمّين مشمّرين.

ما كدتُ أرى بعينيّ الغائرتين، المغتبطتين، شـــارعاً يتنفس في عمق الرياض القديمة، حتى عاجلتني، في لمحة خاطفة، من الخلف، يدان صلبتان، همزتاني بدفعة هائلة، لألتفت قبل أن أهوي في القرار الأخير، وألمح ابتســـامته الخاطفة، وعينيه الماكرتين ترتبكان من وراء نظـــارتين رفيعتين، وأنفه المحني بخشوع بينهما، وأكتنـــاز وجهـــه المستدير، لكنني لم أشاهد الشنطة السامسونايت الرمادية، التي يصطحبها معه، حين يفيض برأسه من باب غرفتي، مساءً، في بناية المجلة : "أهلاً أستاذي"، فأبتسم له، يدلف بعدها، واضعاً شنطته الرمادية فوق الطاولـــة، مبتـــدئاً– كعادته – بثه اليومي، بالحكي عن مغـــامرات مســؤول التحرير ما بعد نصف الليل، حيث يبقى، وعـــن شـــقاوة صغاره، وعن ضيق ذات اليد وقلة الحيلة: "الحاجة تذل الرجال"، كان يقول دائماً، فلا أكترث به، إذ تستمر يداي حرتين، لا يسورهما القلق القـــديم، بـــأن يكفّهمـــا عـــن الإحساس بالأشياء حال لمسها، كأن أحسّ بارتجاف القلم الذي تهصره أصـــابعي، أو انحنـــاءة الكـــأس الســـفلي،

الساخنة، ولوعة أصابعي الطويلة إذ تلتف عليهـــا، فقـــد تخففّتُ من دهشتي التي تعالت، لوجـــوده حالمـــا أدخـــل المبنى، وبقائه حتى بعد خروج آخر موظف، رغـــم أنـــه مكلف بإعداد صفحتي البريد فقط من الصفحات الســـتين للمجلة. إذ التمعَ، ذات مساء، فرح باذخ في صفاء عينيـــه الماكرتين حينما رآني أتهيأ لأخرج إلى المطبخ، مما جعل رفيفاً متسارعاً داخل صدري يفضـــحني عنـــدما تركـــت غرفتي، وفي المطبخ بينما أضع قالبين من السكر، قلـــت لنفسي: "لا بد أنه يعرف لحظة عودتي إلى الغرفة بسماعه الصمت المباغت للصفير المتصل لا بريق الماء، حيـــث يغلي"، خطوتُ حذراً أن أمسّ بقدمي قطعـــة البلاســـتيك القاطعة، في الممر، قبالة غرفتي، تاركاً، خلفي، صـــفير الإبريق يحتد، دون أن أخمده، لأضبطه في غرفتي مفتشاً حافظة أوراقي، فينفض يديه مرتبكاً:" هذه القصص التـــي كتبتها مطلع هذا العام، بإمكانك قراءتها"، يلـــوي عنقـــه، بعدها، مخفياً تلوّن وجهه المستدير، متذرعاً بأنه يبحـــث عن مادة صحفية سلّمني إياها منذ إسبوع، إلـــى أن تقـــع عيناه المتنقلتان على آخر ملصق وضعتُهُ علـــى الجـــدار الذي يسندني، مقطباً حاجبيه في الأيدي السوداء الجافـــة، بفعل الشموس الاستوائية، حيث تمتد كلها صوب ناحيـــة واحدة، كأنها تتزاحم أو تتصارع لالتقاط بقايا مائدة هابطة من السماء، أو من عطايا الصليب الأحمر:

"هذه الصورة ليست هنا"

"كيف". أسأل.

أطلق سبابته نحو الأسفل.

بينما انهمكتُ في ترتيب مادة الملحق الثقافي، قلت:

"ربما"

وشعرت بانكساره، ثانيةً، فحزنت، بعدها، كثيراً، إذ لم أكن أود أن أجعل هذا العدو الجميل، الذي فرحت به مؤخراً، ينطفئ منذ البداية، خصوصاً وأنه واجهني بعينيه الماكرتين، وابتسامته الخاطفة.

جعلتُ الماء البارد المتدفق، بسخاء، من الصنبور، يتخلل أصابعي المفتوحة، مكتفياً بالبلل في أطرافها، بأن نفضتها من الماء، كي لا تفجأني ثلوجته، عندما أفرك به ثقلاً هائلاً من جفنيّ المطبقتين ما زالا.

وبينما ارتخت عضلات وجهي المشدودة أبداً، معلنةً عن ابتسامة أولى في صباح ثلجي كهذا، تذكرت فوراً أنني حلمت منذ ليلتين فقط، بأنني استطعت، للمرة الأولى، أن أبتسم، رغم ارتباكي، للتي يفيض وجهها من نافذة نصف مفتوحة، بهياً، مشرباً ببياض محروق، يؤرخ لقيظ الرياض الحار، متوجاً بعينين صافيتين، وعميقتين، لتدفعْ لي، بعدها، بورقة ذات مربعات صغيرة ، نُزعت لحظتذاك من كراس التفصيل المدرسي، وبعد أن حرّرتها

من ثنياتها، قرأت في جوفها: "وجهك، وأنـــت تضـــحك، أحلى"، وصرت فيما بعـــد أســـرق البســـمات الطازجـــة صباحاً، لأصوبها تجاه نافذة بدأت تفد فوق قاعدتها، ولم تكن لتغادر، حمائم بريش أبيض، مقصوص في منطقـــة أجنحتها.

بدأتُ أجفّف وجهي بمنشفة صوفية مزدانة بخطـــوط مستقيمة وملونة، حتى بدأت تغمر وجهي وأنفي رائحـــة باذخة لبخار خبز ساخن، تناثر، للتـــو، فـــوق بالطـــات، ألوانها وأحجامها تختلف، وهي تحـــفّ فتحـــة التنـــور، وينوش سطحها أنف الفتى، الذي فرش نصـــف منشـــفة القطن فوق مصطبة الفران، وانسدل للأســـفل، النصـــف الآخر، ضامّاً به صدره الضئيل، مســـنداً عظمـــة ذقنـــه البارزة حافة المصطبة، مستسلماً للنعـــاس طـــاغ تجلّلـــه سورة الرحمن، يعلو بها صوت عبد الباسط عبد الصمد، وفحيح النار العالي في عمق التنور، لتسكن معه جنبـــات المخبز، المكسوّة بسواد كثيف بفعل الدخان.

شددتُ طرفي الشماغ ناحية صدري، وأمسكت بهما، أحدهما فوق الآخر، بذقني النابتة، حيـــث غرزتهـــا فـــي صدري، في حركة جعلتني، رغماً عني، أدلق لســـاني، كي أسمح ليديّ بأن تثبتا عقال الصوف الإنجليزي الثقيل، فوق هامتي، وكأنني، لحظتها، أضع فوق رأسي بلـــد، إن التفت، فبهدوء قاتل، خشية أن تنفلت، متناثرةً، شـــوارع،

ومدارس، ومنازل، وحدائق، وأناس، آه، يا لهؤلاء البشر، يصطخبون داخل رأسي الصغير، ويمرّون دوماً من دمي، وهم كارهون.

ما أن فتحت باب شقتي الصغيرة، حتى داهمتني، بعنف، رائحة المطر، وصفع وجهي هواء الصبح الثلجي، لحظة أن شارفت بوابة العمارة. على الرصيف المبلول كان رشاش المطر يتدفق بسخاء متواصل، كثيفاً وواضحاً حول لمبات الشارع العالية، التي ما برحت تضيء دونما كلل، لأتأكد، ثانيةً، من ساعة يدي، إلى أنها السابعة، فقد كان الشارع لم يفارق بياض الفجر الأول، خطوت، حذراً، تجاه سيارتي الصغيرة، المركونة إلى الرصيف، كاشفاً عن سروالي الطويل، خشية البلل. محموماً بدأ يرتعش محرك السيارة، بعد أن حاولته مراراً، وظللت داعساً دواسة البنزين حتى نهض مؤشر الحرارة، ثم تهادت سيارتي بطيئة، ومن مؤخرتها تعلو غيمة هائلة من دخان أبيض، ما لبث أن خفّ قليلاً، لينفلت، بنشاط صباحي، ماسحاً الزجاج الأمامي الأتوماتيكيان، قاذفين، بصخب، ندف المطر المتكاثف، الهاطل بنعومة، لكنني، رغم ذلك، بالكاد أرى مسافة لا تتجاوز بضعة أمتار قليلة ، بفعل الكثافة الضبابية أمامي، وتسعفني كثيراً، إشارات التحذير الضوئية، البرتقالية، التي تبعثها السيارات أمامي. انحرفتُ عن الطريق السريع، دالفاً

المســـــــــار الأيمـــــــــــن، حتـــــــــــى إذا ما استوقفتني الإشارة القابعة، بوداعة، قبالـــة مبنـــى وزارة الداخلية الهائل، انعطفت إلى اليمـــين، ليتســـلّمني، على غير العادة، شارع المعذر بصخب، قاذفـــاً بحبـــات مطر ضخمة مائلة، تصفق الزجاجة الأماميـــة عموديـــاً، وكأنها تسقط في حجري، فتبتل ثيابي، حتى تفـــزّ يمامـــة بهية، ويرفّ جناحاها القويان بصعوبة، وهي تقاوم الهواء الثلجي، واندفاع المطر العنيف، ثم يتحول رفيف جناحيها الأبيضين إلى اصطفاق يمتلئ شارع المعـــذر بضـــجّته، وتتحني له الرايات المشدودة في رؤوس أعمـــدة رفيعـــة على مدخل محطة نفط، لا تلبـــث أن تضـــاحي يمـــامتي الرفيف العنيف، الـــذي يجعلهـــا –أي يمـــامتي– ترفـــع منقارها، مصوباً، نحو السماء، باحثة عـــن رأس أعلـــى بناية في الشارع.

محاذياً الرصيف الذي يشرف عليه مبنـــى الشـــركة بزجاجها الأزرق الداكن، عندما هجســـتُ بـــدخولي كـــل صباح، مجللاً بهمهمات عمال النظافة، وهـــم يضـــيئون، بعناد، البلاط اللامع للبهو، منعكساً في استدارات ثـــلاث، فضية، لمصاعد تنبت وسط البهو، وتعلـــو، كأغصـــان، حتى الطابق التاسع، أدلف إلى أحدها، لأهمز الضاغطِ ذا الرقم ثلاثة، ثم أرتكن إلى طاولة مكشـــوفة فـــي صـــالة واسعة جداً، مزدحمة بطـــاولات أخـــرى تعلوهـــا أدراج

تشرعٍ في الضحى كمظلات دكاكين مصفوفة، ومتقابلة أيضاً، لأهمز ضاغط الآلة الحاسبة، وأفتح دفتر اليومية العامة، الذي احتشدت به الطاولة حتى طرفيها، فأجمع الأيام ألوفاً، وأطرح منها لوعتي جانباً، ويفجؤني، وهو يقف خلفي، بعينيه اللصيقتين ببعضهما، والمحاطتين بإطارين داكنين، وحبيبات بنيّة متناثرة في أنحاء وجهه، فيحذرني من خمولي وكسلي، وأن بيده نعمتي: "إذ لم تجهز الميزان الشهري، اليوم، سيكون لي معك كلام آخر".

بعد أن أوقفتُ سيارتي، كان المطر قد تضاءل، رغم الغيمات الرمادية التي تنوش رأس البناية، فتمعن الجنبات الزجاجية للمبنى غموضاً، وأتوقف أنا في آخر سلم الدرج الرخامي، للمرة الأولى في حاتي ، وأمنح السماء المكتظة غيماً بدات تتقاطر حباته، تحديقاً شهياً، أتبعه بنظرة ملولة تجاه الباب الزجاجي، المحكم إغلاقه، فأعود أدراجي، هابطاً الدرجات الرخامية، هاجساً: "هذا الصباح لي"، وفي السيارة التي اقتحمت شوارع الرياض، ضحىً، همست: "صباح كهذا لا يستحقه أبو محمد"، وبعد أن تناولت صحن فول ساخن، فوق بلاطة رخامية بيضاء، لصيقة بالزجاجِ الخارجي للمطعم المطلّ على شارع الستين، مرشحاً كرسياً، بامتداد رفيع وشاهق، أجبرني أن أدليّ

رجليّ الشقيتين في الهواء، رأيت أن أشرب، في غرفتي، شاياً ساخناً، مشرعاً نافذتها على الشارع العمومي.

ما أن هممتُ بصعود درج العمارة التي أسكن طابقها الرابع، حتى استوقفني طنين الدرابزين الذي أخفت الأيدي، إذ تمسك به لحظة صعود الدرجات، طلاءه الأبيض، فاقتربتُ، ولمستُ، بيد حانية، زاويته، فسرى في كفّي خدر لذيذ وشهي: "ثمة أحد في أعلى الدرج يدق بيده الدرابزين".

بعدما شعرت بانعطافة الدرابزين الحادّة أكثر ألفة من أي وقت مضى، منحت قدميّ، خلسةً، أولى الدرجات المثلومة أسنانها، لتلفّني وشوشات خفيضة، مصحوبة برائحة آدمية لدنة بدأت تهبط نحوي وأنا أصاحب الدرجات، صاعداً، في تواطؤ غير معلن. تعالتْ ضحكاتٌ صافية، ونحيلة، جعلت قطرات المطر في الشارع تشفّ، فأحسست برنينها المتواصل يحذّر يدي المحتوية ماسورة الدرابزين، لتنقطع، فجأة، آخر الضحكات، متبوعة بآهة كانت محشورة لسنين، وقد انفلتت تواً، حتى ضجّ فضاء السلالم العتيقة، واستفحلت الرائحة الآدمية، لدرجة أنها تخلّلت جيب ثوبي، فلامست شعيرات صدري، وارتفعت نحو عنقي، فسحبت نفساً عميقاً في اللحظة التي أمسكت فيها، تماماً، الأصوات المكسورة وهي تطلق، ناعمة، أسرارها الصغيرة عن الذي يشك، والذي يركعها، والذي

يمنع الأهل البعيدين عنها، والذي يشدّ القمر من استدارته إلى خاصرته، ويستلذ، والتي ما برحت الجدران الأربعة لسنين، والتي لن تستكين، والتي..

في فسحة الدرج بينما شرعتُ أصعد درجة أولى في سلم جديد، رافعاً رأسي عالياً، باغتتني انعطافتها نازلة باتجاهي دونما عباءة تلفّها، أو غطاية فوق وجهها، بل تهبط بقميص قطني أصفر، مطرز بطائر أحمر يفرد جناحين يرتفعان أكثر عند اندفاع الصدر المتماسك، وبشعر مقصوص، فوضوي يكشف عن بياض حادّ لعنق رفيع، محاط بسلسال ناعم، وبعينين لم يفلح الصباح، ولا المطر في إخفاء نعاسهما، وما أن لمحت هالتي، حتى نكصت مذعورة، صاعدة وهي تخفي بهاء عينيها بكفّيها الصغيرتين المتوّجتين بأصابع رقيقة، منتهية بأظافر طويلة حمراء، دافعة باب شقة موارب في الطابق الثاني، تتبعها إثنتان كانتا تجلسان قبالة الباب، واستمررت أصعد، موشكاً أن أصطدم بكأس شاي يفيض من عنقه غصن محفوف بوريقات نعناعٍ دوّخت رأسي رائحتها، حالما عبرت مكانهما. وفهمتُ، بعدها، سر القلوب المرسومة بقلم رصاص سميك، والنافذة من عمقها أسهمٌ متوّجة عند الطرفين بأحرف مكتوبة بالإنجليزية ، والوجد الطافح في العبارات الموجزة، وأسماء المدن في شمال البلاد، وجنوبها، وأبيات الشعر الشعبية. لمّا نفذتُ من باب

شقتي، عبرت الممر الضيق باتجــاه غرفتــي، ســاحباً، بعنف، زجاج النافذة المطلّة على الشارع، وذهلت بتوالي زجاج نوافذ كثيرة وهي تنفلت من إطاراتها، تاركة الهواء المشبع برطوبة الشارع يدلف، وحالما التفت إلى الخلف، لم تباغتني يدان قاسيتان توشكان أن تدفعاني من ظهري، بل تناهت إلي ضحكات دافئة، ما برحــت أن تقــاطرت كلّها في غرفتي، تقاسمني الشاي المنعنع.

يوليو 92م.

الفهرس

صـــدر للمؤلـــــف

(1) ظهير رة لامثا اقلهموع ا: ة قصد الريص- مطض: ابع الشريف، 1989م.

(2) ة أث وابهم المجموع يض: ة قصد القـ ص- اهرة: دار شرقيات، 1993م.

(3) لابر أن أحّد حـ للَّ الكرّاسد نصة: ويص- ردورتالجدي د، 1996م.

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

لغط موتى : قصص / يوسف المحيميد – دمشق: اتحـــاد الكتاب العرب، 2000 – 122 ص؛ 20سم.

1- 813.01 م ح ي ل 2- 813.00962 م ح ي ل

3- العنوان 4- المحيميد

ع- 2000/4/552- مكتبة الأسد

❑❑

هذا الكتاب

مجموعة قصصية مكتوبة بطريقة، غير عادية، ومتقدمة على الشكل المألوف، وتبدأ من خلال هاجس الكاتب، وافتراضه للشخصيات، وعلاقتها مع بعضها بعضاً، ويتداخل الواقع المتخيل، ليصور صبوات وآلام شرائح من صغار الناس، في لعبة فنية غاية في الفنتازية والانتصار لها.

❑❑